ايوبيين ومماليك

العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين:

وكان صلاح الدين رحمه الله وأسرته محل تكريم السلطان نور الدين رحمه الله، ذلك أن أسد الدين شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ هو الذي مهد الأمر لنور الدين ليصير حاكماً على حلب، وقد حفظ نور الدين لأسد الدين رحمهما الله هذا الجميل، وكان ما رآه نور الدين من شجاعة أسد الدين وجلده على جهاد الفرنجة، دافعاً لحفظ الجميل، فأكرمه وجعله مقدمة عسكره، وأقطعه حتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما

أسد الدين شيركوه

أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان بن يعقوب الدويني (٥٠٠ هـ-٥٦٤ هـ المناظر ١١٠٧-١١٦٩م)، قائد عسكري كردي بارز في الدولة الشدادية، وهو شقيق نجم الدين أيوب، مؤسس الدولة الأيوبية.

ولد شيركوه ببلدة 'دوين' في أرمنيا على أطراف أذربيجان مع جورجيا سنة ٥٠٠ هجرية تقريباً وهو كردي الأصل، وشيركوه بالعربية : أسد الجبل، فشير بالكردية:أسد، وكوه : جبل، نشأ هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، بتكريت لما كان أبوهما شاذى 'ومعناها فرحان' نقيب قلعتها، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين، ويغلب على نجم الدين العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على إساءة أو عدوان أو انتهاك حرمات وهذا ما سينقل حاله من مكان لآخر.

الأسد فاتح الديار المصرية

كان أسد الدين شيركوه قائدا من القادة الكبار في دمشق وبحكم خبرته العسكرية الطويلة وبصيرته السياسية لأوضاع العالم الإسلامي وقتها يرى انه لابد من ضم الديار المصرية وضرورة فتحها وإزالة الدولة الفاطمية الخبيثة بها والتي تسببت في ضياع بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية، فلقد كان أسد الدين شيركوه متأثراً بفكرة توحيد العالم الإسلامي ضد الوجود الصليبي، وكان يرى أن النصر على الصليبيين لن يتم إلا بتوحيد الشام ومصر.لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين ملك دمشق لكي يفتح مصر ونور الدين يرى أن الوقت غير مناسب، فالجيوش مشغولة في قتال البؤر الصليبية في جميع أنحاء الشام، ولكن نور الدين لم يترك فكرة فتح مصر بالكلية، بل انتظر الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب، فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود وضمن له ثلث إيراد مصر وأموراً أخرى إن هو أعانه على استعادة وزارته المفقودة، فوجد في ذلك نور الدين الفرصة المناسبة لفتح مصر وضمها لملكه في لشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه على أن يتوجه إلى مصر لذلك الغرض، ففرح الأسد بهذه المهمة وخرج من دمشق في صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ومعه ألف رجل فقط وذلك سنة ٥٥٩ هجرية.

معركة البابين

رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو يتلمظ غيظاً على الوزير الخائن في مصر 'شاور' والأوضاع المتردية في الديار المصرية، ويتحرق شوقاً لمعاودة الكرة مع الصليبيين وخونة المصريين، وهو مازال يلح على الملك العادل نور الدين محمود في العودة إلى مصر، حتى وافق نور الدين على ذلك سنة ٥٦٢ هجرية، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بألفين من المقاتلين.

أسرع 'شاور' كعادته وأرسل للصليبيين بالشام يستنجد بهم، فجاءوه بألوف مألفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتحه ثم عسكر في منطقة البابين 'قريب من محافظة المنيا الآن' وقد رفعت له الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاور، فعقد اجتماعا مع قادة جيشه فأشاروا جميعاً بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصر على القتال واستعان بالله ووافقه ابن أخيه صلاح الدين، ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية في غاية الذكاء بحيث أن استدرج معظم الجيش الصليبي لقلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاه من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصارا عظيماً لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير.

حصار الاسكندية

بعد معركة البابين توجه أسد الدين وجنده الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها صلاح الدين ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، فانتهز الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصاراً عنيفاً طيلة تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية والجيش الشامي بقيادة ابن أخيه صلاح الدين الايوبي، فخاف الصليبيون منه خوفاً شديداً جعلهم يطلبون منه الصلح، فاشترط عليهم مغادرة مصر ولا يتملكوا منها قرية واحدة فوافقوا.

لم يعلم أسد الدين شيركوه عندما اتفق مع الصليبيين على الخروج من مصر، أن الخيانة والعمالة التي تسرى في دم الوزير الخائن 'شاور' في مصر سوف تدفعه لأن يعقد اتفاقاً سرياً مع الصليبيين يتعهد فيه بدفع مائة دينار سنوياً من إيراد البلاد للصليبيين كي ما يتقووا بها على حرب نور الدين في الشام، لم يكتف الخائن بهذه الفعلة القذرة، بل اتفق معهم على أن يكون للصليبيين حامية من كبار فرسانهم تحرس أبواب القاهرة وذلك سنة ٥٦٢ هجرية.

تولي صلاح الدين الحكم

وقد جاءت وفاة نور الدين محمود (عام ٥٦٩هـ= ١١٧٤م) لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائبًا للأمير الزنكي في دمشق وحاكمًا فعليًّا لمصر، كما أنها في الحقيقة أعطت صلاح الدين مبررات مقنعة للدخول في مجال السياسة في بلاد الشام؛ حيث إن الصالح إسماعيل كان قاصرًا؛ لذلك قدم نفسه بوصفه النائب القوي الذي يمكن للصالح إسماعيل الاعتماد عليه.

سياسة صلاح الدين العسكرية

- توحيد اجزاء البلاد

تَطَلَّعَ صلاح الدين إلى ضم بلاد الشام إلى مصر بهدف توحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين.

وهكذا ضمَّ صلاح الدين دمشق وقلعتها؛ من أجل حماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، والأمراء الطامعين

- مواجهة الصليبين

ثم أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته، في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وجرت مفاوضات مع أمراء الزنكيين أسفرت عن أن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام، وللحلفاء الزنكيين ما بأيديهم، وأن تُضافَ إلى أملاكه بعض الأراضي الواقعة شمالي (حَمَاة) مثل: المَعَرَّة، وكفرطاب، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب.
قام صلاح الدين بعد ذلك بضم حلب وآمد وسنجار وغيرها من المدن والحصون؛ في سبيله لإتمام الوحدة التي يستطيع بها مواجهة الصليبيين، وتحرير بيت المقدس.
في ذات الوقت كانت هناك محاولتان للتخلص من صلاح الدين قام بها طائفة الحشيشية بالتعاون مع الصليبيين؛ رغبةً من الحشيشية في الانتقام منه لإسقاطه الدولة العبيدية المنحرفة التي يدينون بدينها، وخوفًا – في نفس الوقت - من الصليبيين من أن يُتم صلاح الدين وحدة مصر والشام، ثم يفرغ لمواجهتهم.

النظر في العلاقة مع الصليبيين :

لقد مَرَّتِ العلاقات الأيوبية – الصليبية في عهد صلاح الدين بمرحلتين كبيرتين، امتدت المرحلة الأولى من عام (٥٧٠هـ= ١١٧٤م) إلى عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م). وفي هذه المرحلة لم يكن صلاح الدين متفرغًا لجهاد الصليبيين؛ إذ ليس من المعقول أن يوجه اهتمامه الكامل للجهاد ضدهم، وخلفه مجموعة من الأمراء المسلمين الذين يُشَكِّلُون تهديدًا محتملاً في الشمال والشرق؛ لذلك وَجَّهَ اهتمامه وجهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية.

وقد تخلل هذه المرحلة عقد المعاهدات، مثل المعاهدة التي عقدها مع الملك بلدوين الرابع في عام (٥٧٦ هـ=١١٨٠م)، والمعاهدة مع ريموند الثالث صاحب طرابلس في عام (٥٨١ هـ= ١١٨٥م). وتُعَدُّ هذه المعاهدات من العوامل التي ساعدته على بَثِّ التفرقة بين صفوف الصليبيين، وإضعاف قوتهم.

وامتدت المرحلة الثانية من عام (٥٨٢هـ= ١١٨٦م) إلى عام (٥٨٨هـ= ١١٩٢م)، وكان صلاح الدين قد فَرَغَ من توحيد الجبهة الإسلامية؛ فانصرف بكل طاقاته إلى الجهاد، وحقَّقَ الانتصارات الضخمة التي خَلَّدَت ذِكرَه في التاريخ ومن هذه الانتصارات الانتصار العظيم في حطين عام (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)..

كان من الأفضل للصليبيين -وقد كانوا في حالة صراعٍ داخليٍّ- أن يلتزموا بشروط الهدنة التي عقدوها مع المسلمين، وهي الهدنة التي ضمنت حمايةَ القوافل التجارية بالتنقل بِحُرِّية وأمنٍ ما بين القاهرة ودمشق.

ولكن الأحداث كانت تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين، وهو يستغلها؛ إذ إن تحالفه مع (ريموند الثالث) أثار غضب (رينولد شاتيون) الذي كان في هدنة مع صلاح الدين، فقام بنقض الهدنة في (عام ٥٨٢هـ= أواخر عام ١١٨٦م)، حين أوقف قافلة تجارية كبيرة مَارَّةً بأرض الكرك، في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها؛ فقتل حراسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات، وحملهم إلى حصن الكرك.

- موقف صلاح الدين من خيانة العهد:

لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدده إن لم يطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله.

وعندما وجد صلاح الدين إعراضًا من جانب رينولد أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكيًا، ومطالبًا بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال؛ فلبَّى جاي دعوة صلاح الدين، ولكنه أخفق في الضغط على رينولد.

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض رينولد وعَجْز جاي؛ فأقسم أن ينتقم من رينولد، بل إنه "نذر دمه، وأعطى اللهَ عهدًا إن ظفر به أن يستبيح مهجته"[١٦]، وما حدث من نقض الهدنة على هذا الشكل جعل الحرب أمرًا لا مَفَرَّ منه.

لقد اختار الصليبيون صفورية قُرب عكا مكانًا لتجمعهم، وحملوا معهم صليب الصلبوت تَبَرُّكًا، وعندما علم صلاح الدين أن ريموند الثالث نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة معه، غادر الأردن مسرعًا إلى أن وصل إلى عشترا في حوران؛ فاجتمع بابنه الأفضل، وشاهد جيوشه البالغة اثني عشر ألفًا من الفرسان، بالإضافة إلى المشاة والمتطوعة مجتمعةً؛ فعبَّأها لخوض المعركة، ثم توجه إلى طبرية يوم الجمعة (١٧ من ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ= ٢٦ من حزيران عام ١١٨٧م)، وكان يقصد بوقعاته أيام الجُمَع لا سيما أوقات الصلاة؛ تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر؛ "فربما كانت أقرب إلى الإجابة"

استرجاع بيت المقدس

وأضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية؛ إذ لم يبقَ أمامه - بعد أن دمر أعداءه - إلا أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين، الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين، أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، حتى لم يبق لديهم من يصلح للقيادة. يُضَافُ إلى ذلك أن الغرب الأوروبي لم ينتبه إلى الخطر قبل عام (٥٨٣ هـ= ١١٨٧م)؛ ولذا فإن احتمال

مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمنًا؛ لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحًا سريعًا ومتواصلاً، مُرَكِّزًا ضرباته المباشرة على الموانئ المهمة حتى لم يَبْقَ للنصارى جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة، وبضع قلاعٍ معزولة، بالإضافة إلى بيت المقدس.
ويبدو أن صلاح الدين تخلى عن حذره هذه المرة أيضًا، حين منح الصليبيين - بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها - حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور؛ ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعبًا فتركها، وآثر الانصراف إلى غيرها؛ فقام بفتح عسقلان.

فتح بيت المقدس

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلع إلى تحقيق هدفه الذي طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيدًا لطرد الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعد لتنفيذ هذه الخطوة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي أثناء حصاره لبيت المقدس؛ أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.
وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل حلقة الحصار على المدينة المقدسة؛ ومن ثَمَّ دعا أهلَها إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

الدولة بعد صلاح الدين

لقد أسَّسَ البطل الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي دولة الأيوبيين في سنة ٥٦٩ هجرية، وظل يحكم هذه الدولة عشرين سنة إلى سنة ٥٨٩ هجرية، ووَحَّدَ في هذه الفترة مصر والشام، وتَزَعَّمَ الجهاد ضد الممالك الصليبين باقتدار، وحقَّقَ م انتصاراتٍ بفضل الله و أشهرها موقعة حطين التي كانت في ربيع الآخِر سنة ٥٨٣ هجرية، وفَتْح بيت المقدس بعد حطين بثلاثة شهور فقط في رجب من نفس السنة، وترك صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- دولة قوية عظيمة تبسط سيطرتها على مصر والشام والحجاز واليمن وأعالي العراق، وأجزاء من تركيا، وأجزاء من ليبيا والنوبة، وحُصِرَ الصليبيون في ساحل ضيق على البحر الأبيض المتوسط في الشام.

و بوفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله كان قد خلف اموالا كثيرة ودولة واسعة وكان من جَرَّاءِ هذه العوامل وغيرها أن حدثت انقسامات شديدة في الدولة الأيوبية، مما جعل تلك الدولة الواسعة تتعرض للتفكك وتَفَكَّكَتِ بعد وفاته .

أسرة صلاح الدين والسلطة

- **طغتكين بن أيوب**بن شاذي بن مروان (ت. ١١٩٧)، أخ صلاح الدين الأيوبي تولى أمر
- تولى اليمن ويلقب **بظهير الدين وبسييف الإسلام**.

قبل مجيء الصليبين كانت بانياس في ولاية الأتابك ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، الى سنة ٥٢٠ هـ، وكان في عهده استفحل أمر الإسماعيلية الباطنية في حلب و دمشق، فاضطر طغتكين إلى أن يبعدهم ويسلمهم بانياس دفعاً لشرهم ولتسليطهم على الافرنج . وفي سنة ٥٢٧ هـ سار شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين وهاجم بانياس وفتحها.[1]كما ولى السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب نيابة اليمن فملكه عليها ، وأرسله إليها ، وذلك لاختلاف نوابها واضطراب أصحابها ، بعد وفاة المعظم تورانشاه أخي السلطان الذي كان افتتحها ، فلما وقعت الفتن بها ، وكثر التخليط والتخبيط ، سمت نفس أخيه طغتكين إليها ، فأرسله أخوه إليها وولاه عليها ، فسار فوصلها في سنة ثمان وسبعين ، فسار فيها أحسن سيرة ، وأكمل بها المعدلة والسريرة ، واحتاط على أموال حطان بن منقذ نائب زبيد وكانت تقارب ألف ألف دينار أو أكثر ، وأما نائب عدن فخر الدين عثمان الزنجيلي فإنه خرج من اليمن قبل قدوم طغتكين فسكن الشام وله أوقاف مشهورة باليمن ومكة ، وإليه تنسب المدرسة الزنجيلية ، خارج باب توما ، تجاه دار الطعم ، وكان قد حصل منها أموالا عظيمة جدا .

توليه مع ابنائه اليمن

شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

أخو صلاح الدين حارب مع نور الدين محمود بن زنكي واستشهد في إحدى المعارك ضد الفرنج عام ٥٤٢هـ ١١٤٨. ودفن في تربة أيوبية تعرف اليوم بالتربة النجمية الكائنة في سوق ساروجة إلى القرب من المدرسة الشامية البرانية.

الملك العزيز بن صلاح الدين (١١٧١ - ١٢٠٠) هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان نائبًا عن أبيه فى الديار المصرية لما كان أبوه بالشام، وتوفى أبوه بدمشق، فاستقل بملكيتها باتفاق من الأمراء. ولد بالقاهرة سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧هـ)، وسمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السَّلَفى، والفقيه أبي الطاهر ابن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد ابن بري النحوي وغيرهم. وكان ملكًا مباركًا كثير الخير واسع الكرم محسنًا إلى الناس معتقدًا فى أرباب الخير والصلاح. وكان قد توجه إلى الفيوم ، فطرد فرسه وراء صيد، فتقطر به فأصابته الحمى من ذلك، وحُمل إلى القاهرة.

وفاته

وتوفى سنة خمس وتسعين وخمسمائة (٥٩٥هـ).

الملك الأفضل بن صلاح الدين (١)(ح. ١١٦٩ - ١٢٢٥) أحد أبناء صلاح الدين السبعة عشر. وقد خلف أباه كثاني أمير على دمشق. وكان قائد الجيش الأيوبي في معركة كرسون.

هو أبو الحسن على، الملقب الملك الأفضل نور الدين، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أحد ملوك الدولة الأيوبية . ولد بالقاهرة سنة ست وستين وخمسمائة (٥٦٦هـ)، ووالده يومئذ وزير المصريين.

سمع بالإسكندرية من الإمام أبى الطاهر إسماعيل بن مكى بن عوف الزهرى ، وبمصر من العلامة أبي محمد عبد الله بن برى النحوي، وأجاز له أبو الحسين أحمد بن حمزة بن على السلمي، وأبو عبدالله محمد بن على بن صدقة الحرانى، وغيرهما من الشاميين، وأجاز له أبو القاسم هبة الله بن على بن مسعود، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن حامد، وغيرهما من المصريين، وكان يكتب خطًا حسنًا، واجتمعت فيه فضائل.

وكان أكبر أولاد أبيه وإليه كانت ولاية عهده، فلما توفى والده بدمشق وكان الملك الأفضل فى صحبته، استقل بمملكة دمشق، واستقل أخوه الملك العزيز عماد الدين عثمان بالديار المصرية، وبقي الملك الظاهر أخوهما بحلب، ثم إن الملك الأفضل جرت له مع أخيه وقائع يطول شرحها. وآخر الأمر أن العزيز والملك العادل عمه حاصرا دمشق، وأخذاها من الأفضل وأعطاه صَرخد، فمضى إليها وأقام بها قليلاً، فمات العزيز بمصر وتولى ولده الملك المنصور محمد وكان صغيرًا، فطُلِبَ الملك الأفضل من صرخد ليكون أتابكه فى سنة (٥٩٥هـ). ثم إن الملك العادل قصد الديار المصرية وأخذها، ودفع للأفضل عدة بلاد بالمشرق، فمضى إليها، فلم يحصل له سوى سُمَيساط فأقام بها، ولم يزل بها إلى أن مات. وما أحسن كلام القاضي الفاضل من جملة كتاب كتبه فى أثناء هذه الوقائع:

تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب هو الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الدويني (١) وهو ابن اخ السلطان صلاح الدين الأيوبي أمطر الله على قبره شآبيب الرحمة والرضوان .

أما شاهنشاه والد الملك المظفر تقي الدين عمر فقد استشهد على باب دمشق قتله الفرنج المحاصرون لها في الوقعة التي اجتمع فيها من الفرنج سبع مئة ألف مابين فارس وراجل على ما قيل ، وتقدموا على باب دمشق وعزموا على قصد بلاد المسلمين قاطبة ،ونصر الله تعالى المسلمين عليهم وكان استشهاده في شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هجرية ودفن بالشرف ظاهر دمشق.كان شاهنشاه أكبر أخوته وهو كما أسلفنا أخو السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي يوسف لأبيه وأمه وخلف ولدين وهما : الملك المظفر المترجم و الملك المنصور عز الدين فروخ شاه أبو الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وابنته تسمى عذراء وهي التي بنت المدرسة العذراوية داخل باب النصر بدمشق ودفنت فيها سنة ٥٩٣ هجرية

ولادته ونشأته وما تولاه من أعمال

ولد الملك المظفر سنة ٥٣٤ هجرية ونشأ رحمه الله ككل فتيان عصره يتعلم القرآن الكريم ومبادئ الدين والعلوم والكتابة ثم يتجه الى التدرب على السلاح وتعلم الفروسية ثم يوجه نظره الى ساحات الوغى فينشأ فارسا شجاعاً ذائداً عن حياض أمته من رجس الأعداء بكل ايمان وإخلاص .كان الملك المظفر ينوب عن عمه السلطان صلاح الدين في امارة دمشق عند غيابه عنها وفي سنة أربع ٥٧٤ هجرية أنعم عليه عمه السلطان صلاح الدنيا والدين بمملكة حماه بعد موت صاحبها الأمير شهاب الدين محمود الحارمي خال السلطان ورتب في خدمته شمس الدين ابن المقدم ، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب ، ثم في سنة ٥٧٩ هجرية كان الملك العادل نائباً بمصر عن أخيه السلطان صلاح الدين فلما فتح حلب كتب إليه يطلبها منه مع أعمالها ويدع الديار المصرية فكتب إليه السلطان أن يوافيه إلى الكرك فإنه سائر إلى فتحها فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين عمر فإستصحبه السلطان معه في رجب إلى الكرك ومنها ولاه مصر وعضده بالقاضي الفاضل الذي انتدبه لعونه نظرا لقساوة طبعه رغم كون السلطان لا يؤثر مفارقة القاضي الفاضل .ونعم السلطان على ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بالاسكندرية ودمياط والفيوم ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف ورمسيس وأنعم

عليه بالأعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها وزاد القايات وبوش وابقى عليه في البلاد الشامية حماه وقلعتها وجميع أعمالها ، وكان نائبه بحماه ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين صاحب أبي قبيس وكان قد جمع بين النهضة والأمانة جاء في (النجوم الزاهرة) لإبن تغري بردي :

في سنة ٥٨٢ وقعت منافرة بين الملك تقي الدين عمر والملك الفضل نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين الذي كان بالديار المصرية بكفالة عمه العادل ثم صار بكفالة الملك المظفر تقي الدين عمر ابن عم النائب فيها وذلك ن الملك المظفر كان شديدا فينقم على أحدهم فيأتيه الملك الفضل ويثقل عليه ويمنعه من إيقاع المكروه به فكتب المظغر يشكو للساطان صلاح لدين ابنه الملك الأفضل وكان في نفس السلطان صلاح الدين نقل ابنه عبد العزيز وتفويضه ملكاً على مصر فكتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل يتشوقه ويستدعيه بجميع اهله وجماعته ووالدته وحشمهم وأصحابهم إلى الشام فوصل دمشق وكتب السلطان إلى الملك المظفر تقي الدين عمر : " أنه قد استقل أمره وزال عذره" ففرح بذلك وخفي عليه أن السلطان جعله في ذمة ولده الملك العزيز وعصمته .وفي نفس العام وصل الملك العزيز عماد الدين عثمان مصر التي صارت في ملكه مع أخية الملك الأفضل وأصبح الملك العادل أتابكه وصرفت للملك العزيز الإقطاعات العظيمة وعزل الملك المظفر عن نيابة مصر فغضب وحزن لذلك وعبر باصحابه إلى الجيزة يريد اللحاق بغلامه قراقوش التقوي وأخذ بلاد المغرب وكان قراقوش قد إستولى على جبال نفوسه وبرقة وغيرها وكان قراقوش قد أرسل الى سيده الملك المظفر كتابا يقول فيه " إن البلاد سائبة " فعزم الملك المظفر أ يأخذ تلك البلاد بسيفه ومال عسكر مصر الى الملك المظفر لشجاعته وبذله وقدم مملوكه (يرزبه) في المقدمه وكتب للسلطان يستأذنه .ولم انتهى للسلطان خبر عزمه قال :لعمري إن فتح المغرب مهم لكن فتح بيت المقدس أهم وإذا توجه تقي الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في اقتناء الرجال وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل"وعلم السلطان نجاح تقي الدين عمر في ركوب تلك اللجّة ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ليودعه ويوصيه بما يفعله وكتب إليه القاضي الفاضل

ثم أرسل السلطان صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند في مصر وأمره بإخراج تقي الدين عمر والمقام في مصر فسار مجدّاً فلم يشعر الملك المظفر تقي الدين عمر إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهل إلى أن يتجهّز فلم يفعل وقال :" تقيم خارج المدينة وتتجهز "فخرج وأظهر أنه يريد الدخول الى المغرب فقال له السلطان : " إذهب حيث شئت "فلما سمع السلطان صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه ولم يزل يتلطف به ويترقق له حتى أقبل بجنوده نحوه فأكرمة وإحترمه ، واعاد إليه إقطاع حماه المحروسة وبلادا كثيرة وقد كانت له من قبل ذلك وزاد على ذلك مدينة ميافارقين ولم يظهر له شيئا مما كان لأنه كان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله .

الملك الكامل الشهيد

ناصر الدين محمد **بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب (ت. ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م)، تملك ميافارقين وغيرها بعد أبيه سنة خمس وأربعين وستمائة، وكان شابا، عاقلا، شجاعا، مهيبا، محسنا إلى رعيته، مجاهدا، غازيا، دينا، تقيا، حميد الطريقة**

موقفه مع التتار

تملك الكامل ميافارقين وغيرها بعد أبيه سنة ٦٤٥ هـ وكان محبوبا من رعيته عادل السيرة فيهم، وقد استتب له الأمر فيها وما جاورها إلى حين ظهور التتار فكان أول من صمد أمامهم، وأعلن الجهاد، رغم تخاذل من حوله، وبعثهم الهدايا والأموال طلبا لرضاء هولاكو وتأمينا لمناصبهم ومراكزهم، ولم يكن يغفل أهمية الصلح، خصوصا في مواجهة عدو لا قبل له به، فراسل التتار في أول الأمر ودارهم، إلا أنه أدرك أنهم لم يكونوا يبحثون عن صلح وسلام، إنما يطلبون منه الاستسلام التام، والخنوع لهم مقابل أن يظل في منصبه، فرفض في إباء وشجاعة وصمد صمودا أسطوريا، ملأ هولاكو عليه غضبا وغيظا وحقدا.

ومما يجدر ذكر أن الكامل كانت له معرفة بالتتار، تفوق غيره، وذلك لأن والده رحمه الله كان قد تصدى لهم من قبل، وهزمهم.

"وكان أول من احتك عسكرياً - بشكل فعلي - مع التَّتار من بني أيوب هو شهاب الدين غازي [والد الكامل محمد بن غازي فبعد هزيمة التتار لجلال الدين منكبرتي عام ٦٢٨هـ/١٢٣١م هاجمت فرقة منهم مَيَّافارقين، فتصَّدى لهم شهاب الدين "وكسرهم وغنم أسلحتهم، ويبدو أنه كان أكثر بني أيوب معرفة بالتتار وبتقدير قوَّتهم الحقيقية، فمع تغلُّبه على فرقة منهم إلا أنّه طلب من السُّلطان الكامل الدعم، لأن التَّتار أصبحوا على حدوده، وربمَّا كان شهاب الدَّين موقناً بأن موجة من الصراع الدامي لا يُمكن لأحد أن يتنبَّأ بنتائجها ستضرب المنطقة، فطلب من الكامل - أيضاً - الإذن لنقل حريمه إلى مصر، وجاء جواب الكامل، جواب من لازال يعيش مرحلة قبلة التَّتَّار، فقد ردَّ عليه : إن أُخِذت مَيَّا فارقين أخذَتِ مصر، وكيف يليق ببني أيوب أن يفسحوا لك بذلك وراءهم خمسون ألف فارس"[٢]

الحرب وإعلان الجهاد على التتار

"لما وصلت الأنباء إلى الملك الكامل محمد بسقوط بغداد أعد العدة للجهاد، ولما بلغ الأمر إلى هولاكو أراد أن يفت في عزم الملك الكامل فأرسل إليه رسولاً يوحي إليه بالاستسلام كغيره من الأمراء الأيوبيين، وكان الرسول نصرانيًّا عربيًّا اسمه "قسيس يعقوبي"، وذلك لأمرين حتى يستطيع التفاهم مع الملك الكامل بلغته، والأمر الثاني لتوصيل رسالة غير مباشرة إلى الكامل بأن النصارى مع هولاكو، فوقع الكامل بين أرمينيا النصرانية المتحالفة مع التتار من الشرق، والكرج النصرانية في الشمال الشرقي، ومن الجنوب الشرقي التتار، ومن الغرب إمارات السلاجقة العميلة للتتار، ومن الجنوب الغربي إمارة حلب العميلة للتتار.

غير أن كل هذا لم يفت في عزم الملك الكامل، وحتى يعلن الحرب على التتار ولا يعطي فرصة لنفسه أو لمن معه بالتخاذل، فقد أقدم على قتل الرسول، معلنًا بذلك الحرب على التتار"[٣]

الملحمة التاريخية

سبق ذكر أن الكامل فطن لمقصد التتار، وأنهم يريدون استسلاما لا سلما ،فقد وفد إليهم من قبل ،وأكدت وقعة بغداد أنهم لا أمان لهم ولا سلام ، فرفض العرض وقتل الرسول ، وتجهز للحرب والنزال ، فأرسل إليه هولاكو ابنه أشموط ورغم قلة العدد وجبن المجاورين له وتخاذلهم عن نصرته ، فقد صمد وقاتل وثبت قريبا من السنتين يقاتلهم واشترك معه جميع أهل البلد في جهاد عظيم حتى قاتلت معه النساء إلى أن فنوا جميعا رحم الله أولئك الأبطال ولم يبق منهم بعد الألوف الا قريبا من السبعين أو التسعين إنسانا ، وقد هابهم التتر حتى أنهم لم يجسروا على دخول المدينة حتى بعد سقوطها.

قال الذهبي :"حدثني الشيخ محمود بن عبد الكريم الفارقي قال:

” سار الكامل إلى قلاع بنواحي آمد فأخذها، ثم نقل إليها أهله، وكان أبي في خدمته، فرحل بنا إلى قلعة منها، فعبرت التتار علينا، فاستنزلوا أهل الملك الكامل بالامان من قلعة أخرى، وردوا بهم علينا، وأنا صبي مميز، وحاصروا ميافارقين أشهرا، فنزل عليهم الثلج، وهلك بعضهم، وكان الكامل يبرز إليهم ويقاتلهم، وينكي فيهم فهابوه، ثم بنوا عليهم سورا بإزاء البلد، بأبرجة، ونفدت الاقوات، حتى كان الرجل يموت فيؤكل، ووقع فيهم الموت، وفتر عنهم التتار وصابروهم، فخرج إليهم غلام أو أكثر وجلوا للتتار أمر البلد، فما صدقوا، ثم قربوا من السور وبقوا أياما لا يجسرون على الهجوم، فدلى إليهم مملوك للكامل حبالا فطلعوا إلى السور فبقوا أسبوعا لا يجسرون، وبقي بالبلد نحو التسعين بعد ألوف من الناس، فدخلت التتار دار الكامل وأمنوه، وأتوا به هولاكو بالرها فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأسا فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنت، فناولته فأبي، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاكو ، وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم من رأى وجه القان لا يقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضبا وقتله. “

" وفي تاريخ بيبرس: ثم سار هلاون-هولاكو- عن بغداد بعد انقضاء الشتاء إلى الشام، وجرد جيشاً إلى ميافارقين صحبة صرطق نوين وقطغان نوين، وكان بها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادى، فحاصروها ونصبوا عليها المنجنيقات من كل ناحيةٍ، فقاتلت أهلها وامتنعوا عن تسليمها، وصبروا أنفسهم على الحصار الشديد والجوع المبيد، حتى أكلوا الميتات والدواب والسنانير والكلاب، وطال عليهم الأمد، وقلت منهم القوة والجلد، فاستولى التتار على المدينة وفتحوها، وكانت مدة مقامهم على حصارها سنتين، فقتلوا وسبوا من أهلها خلقا كثيراً، وفنى الجُند من كثرة القتال، واشتداد النزال وأُسِرَ من بقى منهم، وأخذ صاحبها ناصر الدين الملك الكامل وتسعة نفر من مماليكه وأحضروا بين يدي هلاون، فقتلوا إلا مملوكاً واحداً اسمه قرا سنقر، أبقاه هلاون، وذلك أنه سألهم عن وظائفهم، فذكر له ذلك المملوك أنه كان أمير شكار للسلطان، فاستبقاه وسلم إليه شيئاً من الطيور الجوارح وحظِى عنده، واتفق حضوره إلى الديار المصرية في الأيام الظاهرية، فأعطاه السلطان إقطاعاً، وجعله مقدم في الحلقة."

"سير هولاكو أشموط لمحاصرة الملك الكامل فحصره حصراً شديداً وبقي الملك الكامل مجاهداً للتتر صابراً لقتالهم حتى فني أكثر أهل ميافارقين وعمهم الموت قتلاً وفناء لكثرة الغلاء وعدم الأقوات وبقي محصوراً دون سنتين فعند ذلك ضعفت القوى عن محاربة العدو فاستولوا على ميافارقين واستشهد الملك الكامل قدس الله روحه وحمل رأسه على رمح وطيف به في البلاد فوصلوا به إلى حلب ثم إلى حماة وحمص وبعلبك وشاهدته وهو يطاف به بمدينة بعلبك ثم وصلوا به إلى دمشق يوم الاثنين سابع وعشرين جمادى الأولى وطافوا به بالمغاني والطبول ثم علق الرأس بسور باب الفراديس فلم يزل معلقاً في شبكة إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الرأس داخل باب الفراديس"

ترحم العلماء والمؤرخون وثناؤهم عليه

يقول الذهبي في: "كان شابًّا، عاقلاً، شجاعًا، مهيبًا، محسنًا إلى رعيته، مجاهدًا، غازيًا، دينًا، تقيًّا، حميد الطريقة"

وفي شذرات الذهب"وفيها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين ملك سنة خمس وأربعين وستمائة وكان عالما فاضلا شجاعا عادلا محسنا إلى الرعية ذا عبادة وورع ولم يكن في بيته من يضاهيه حاصرته التتار عشرين شهرا حتى فنى أهل البلد بالوباء والقحط ثم دخلوا وأسروه فضرب هلاكو عنقه بعد أخذ حلب وطيف برأسه ثم علق على باب الفراديس ثم دفنه المسلمون بمسجد الرأس داخل الباب"

وقال الصفدي : "كان ملكًا جليلاً دينًا خيرًا، عالمًا مهيبًا شجاعًا محسنًا إلى الرعية، كثير التعبد والخشوع، لم يكن في بيته من يضاهيه"

"ومات الملك الكامل محمد بن المظفر غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي صاحب ميافارقين، وكان عالماً عادلاً محسناً، قتله التتار وحملوا رأسه إلى دمشق"

"والملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن العادل صاحب ميافارقين ملك سنة خمس وأربعين وكان عالمًا فاضلًا شجاعًا عادلًا محسنًا إلى الرعية ذا عبادة وورع ولم يكن في بيته من يضاهيه حاصرته التتار عشرين شهرًا حتى فني أهل البلد بالوباء والقحط ثم دخلوا وأسروه فضرب هولاوو عنقه بعد أخذ حلب وطيف برأسه ثم علق على باب الفراديس ثم دفنه المسلمون بمسجد الرأس داخل الباب

"كان ملكاً جليلاً ديناً خيراً عادلاً عالماً محسناً إلى رعيته وسائر من في خدمته كثير التعبد والخشوع لم يكن في البيت الأيوبي من يضاهيه في ديانته وحسن طريقته ورضي عنه وكان التتار قد استولوا على جميع بلاده ومعاقله ومعظم أولاده وحرمه وأهله وهو محصور بميافارقين ثم ختم له بالشهادة على هذا الوجه الجميل بعد أن أفنى في مدة الحصار من التتار ما لا يحصى كثرة

استشهاده

" وأتوا به هولاكو بالرها فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأسا فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنت، فناولته فأبي، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاكو.وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم من رأى وجه القان لا يقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضبا وقتله "[١٢]

"وفي هذه الأثناء حدث حادث أليم ومفجع، إذ سقطت مدينة ميافارقين تحت أقدام التتار بعد الحصار البشع الذي استمر عاماً ونصف عام ثمانية عشر شهراً متصلة من النضال والكفاح والجهاد.. وذلك دون أن تتحرك نخوة قلب أمير من الأمراء أو ملك من الملوك ثمانية عشر شهراً والناصر والأشرف والمغيث وغيرهم من الأسماء الضخمة يراقبون الموقف ولا يتحركون!

سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت حرماتها تماماً.. فقد جعلها أشموط بن هولاكو عبرة لكل بلد يقاوم في هذه المنطقة.. فقتل السفاح كل سكانها، وحرَّق ديارها، ودمرها تدميراً.. ولكنه احتفظ بالأمير الكامل محمد الأيوبي -- حياً ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب..استجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبي --، فأمسك به وقيده، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه!!.. وظل به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله عز وجل للروح المجاهدة أن تصعد إلى بارئها.

الناصر أيوب بن طغتكين

الناصر أيوب بن طغتكين ٥٩٨ - ٦١١ هـ / ١٢٠٢ - ١٢١٤ م هو الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب بن شادي ولي اليمن بعد قتل أخيه الملك المعز.وكان صغيراً فتولى شئون الدولة مربيه الأمير سيف الدين سنقر (الأتابك) فتولى تدبير أمور دولته أولا بتثبيت الأمور في المناطق الخاضعة للسيطرة الأيوبية وعزل وتعين بعض الولاة وبعد ذلك تفرغ سنقر لاستعادة النفوذ الأيوبي والسيطرة التامة على البلاد حتى توفى سنة ٦٠٨ هـ.وبعد وفاة الأمير سنقر جعل الناصر أيوب بن سيف الإسلام طغتكين غازي بن جبريل مكانه قائما بالملك فحمل الناصر على طلوع صنعاء لقتال الإمام عبد الله بن حمزة فلما استقر بها سممه غازي فتوفي في شهر محرم سنة ٦١١ هـ وحمل إلى تعز وقبر فيها.

العادل أحمد بن أيوب

الملك العادل هو أبو بكر أحمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان، الملقب بالملك العادل سيف الدين، (٥٣٩ ـ ٦١٥هـ/١١٤٤ـ ١٢١٨م) أخو صلاح الدين، وأحد ملوك الدولة الأيوبية.

سيف الدين، أبو بكر، محمد بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ولد في بعلبك، ونشأ في كنف والده نجم الدين أيوب، وكان من كبار رجالات السلطان نور الدين محمود بن زنكي.

رحل إلى مصر مع أبيه سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، وكان صلاح الدين قد ولي وزارتها للعاضد سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين.

ولعل أول ما ولي من الأعمال لصلاح الدين حين استقل بحكم مصر بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م قيادته لجيش أرسل إلى أسوان لإخماد ثورة هناك تريد إرجاع الخلافة الفاطمية، وقد تمكن من القضاء عليها في صفر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ثم استنابه صلاح الدين على مصر لما توجه إلى بلاد الشام في ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ، ليبدأ سياسته في توحيدها مع مصر تحت سلطانه، وقد بقي نائباً له فيها حتى فتح صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م فولاه إياها، ثم أعاده إلى ولاية مصر سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م على أن يكون أتابك ابنه العزيز.

وعقب معركة حطين في ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وفتح صلاح الدين لعكا في مستهل جمادى الأولى، قدم العادل من مصر وسار إلى أخيه صلاح الدين وهو على حصار صور، ثم رافقه إلى عسقلان حتى فتحت في آخر جمادى الآخرة فولاه إياها، وشارك صلاح الدين في فتح القدس في رجب في السنة نفسها، وتولى استيفاء الفدية التي ضربت على الصليبيين فيها، ثم عاود مع صلاح الدين حصار صور، فلما امتنعت عليهما رحل صلاح الدين عائداً إلى عكا، وسار العادل إلى مصر، وقد بقي فيها حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م حيث قدم إلى الشام، فأقامه صلاح الدين في تبنين ليحفظ البلاد أثناء توجهه لفتح جبلة، اللاذقية، وحين عاد صلاح الدين من فتح جبلة واللاذقية، أعطى العادل الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم أذن له بالعود إلى مصر.

وكان الصليبيون قد أعادوا تجميع صفوفهم، فخرجوا من صور نحو عكا لمحاصرتها، ونزلوا عليها في رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، فكتب صلاح الدين للعادل يستدعيه من مصر مع العساكر، فقدم عليه وبقي ملازماً له، ولما اشتد حصار الصليبيين لعكا بعد قدوم ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، فيما عرف بالحملة الصليبية الثالثة، سقطت عكا في أيديهم سنة ٥٨٧هـ.

ثم رحل فيليب إلى بلاده، وبقي ريتشارد سنة كاملة لم يستطع خلالها الزحف نحو بيت المقدس واستعادته، فآثر الصلح مع صلاح الدين، وبدأ بمفاوضات كان يتولاها العادل، وقد عرض عليه ريتشارد في إحداها أن يتزوج من أخته ملكة صقلية، ووافق العادل، ثم اكتشف أنها كانت مجرد خدعة.

وتوفي أثناء ذلك تقي الدين عمر في رمضان سنة ٥٨٧هـ، وكان يلي إضافة إلى حماة: الرها وحران وسميساط، فولى صلاح الدين تلك البلاد للعادل على أن ينزل عن إقطاعه في مصر، وأن يبقى له في الشام الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، فسار العادل إلى حران في جمادى الأولى سنة ٥٨٨هـ يرتب أمورها، ثم عاد في آخر جمادى الآخرة، فعاود ريتشارد التفاوض معه حتى عقدت الهدنة، التي عرفت بصلح الرملة، ومدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها في الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ.

وفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م توفي صلاح الدين فقدم العادل من الكرك إلى دمشق، ولم يطل المقام فيها بل رحل طالباً بلاده الرها وحران وسميساط خوفاً عليها من حاكم الموصل.

وكان صلاح الدين قبل وفاته قد ولى ابنه الأفضل على دمشق وأعمالها، وولى ابنه العزيز عثمان مصر، وولى ابنه الظاهر غازي حلب وأعمالها.

وسرعان ما نشب بين الأخوين العزيز والأفضل صراع، حاصر العزيز على إثره دمشق مرتين، الأولى في سنة ٥٩٠هـ، والثانية سنة ٥٩١هـ، وقد استعان الأفضل فيهما بعمه العادل الذي استفاد من هذا الصراع بين الأخوين بعودة إقطاعه في مصر في الأولى، ثم بإقامته في مصر بالثانية استعداداً للانقضاض على دمشق.

وقد سنحت له الفرصة في سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦م حيث سقطت دمشق بيد العزيز والعادل، وأخرج الأفضل منها إلى صرخد، وأصبح العادل على إثرها نائباً للعزيز في دمشق وأعمالها، وحين قدمت الحملة الألمانية إلى عكا ٥٩٣هـ/١١٩٧م استطاع العادل أن يقف في وجهها، ويستولي على يافا بهجوم مباغت، ورد الصليبيون على ذلك باستيلائهم على بيروت، غير أن العـادل تجنب الاصطدام بهم في معركـة، مفضلاً عقد هدنــة معهم، وقد تم له ذلك في سنة ٥٩٤ه/١١٩٨م، وكانت مدة الهدنة خمس سنين وثمانية أشهر، وأتاحت له هذه الهدنة الاسـتيلاء على مصر عقب وفاة العزيز عثمان في سنة ٥٩٥هـ، طارداً منها الأفضل الذي حاول حكمها نائباً لابن العزيز، ثم خلع ابن العزيز، واستقل بحكم مصر في سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، واستدعى ابنه الكامل من حران ليكون نائبه فيها.

وهكذا تمكن العادل بعد نحو سبع سنين من وفاة صلاح الدين أن يصبح سلطان مصر وبلاد الشام، وأن يعيد توحيد البيت الأيوبي تحت سلطانه، وكان يعتقد أنه أحق الناس بعد أخيه بالسلطنة، غير أنه لم يتابع سياسة أخيه صلاح الدين في مقاومة الصليبيين، بل آثر مسالمتهم، فما كانت تنتهي هدنة حتى يسارع إلى تجديدها حتى انتهت آخر هدنة في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م حيث كانت الحملة الصليبية الخامسة في طريقها إليه، ولما وصلت طلائعها إلى عكا خرج من مصر إلى الشام، فبرز الصليبيون لقتاله، فانحرف عنهم إلى بيسان من الأردن، ثم اتجه نحو دمشق.

وما كاد يستقر فيها حتى فوجئ بالحملة الصليبية تصل إلى عكا، ثم تشق طريقها بحراً نحو دمياط، وقد استطاع الصليبيون في آخر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م من الاستيلاء على برج دمياط، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبر النيل لتمنع المراكب التي في البحر من دخول دمياط، وكان سقوط هذا البرج مؤذناً بسقوطها، فلما وصل خبره إلى العادل دق على صدره حزناً وأسفاً على ما جرى، ووقع مريضاً، حيث توفي، فدفن بقلعة دمشق، ثم نقل في سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م إلى تربته في المدرسة العادلية الكبرى، وكان قد بدأ بإنشائها في سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م وأتمها من بعده ابنه المعظم عيسى.

ومن أكبر إنجازات الملك العادل إعادة بنائه القلعة الأيوبية (قلعة دمشق الحالية) فقد رأى حين آلت إليه أمور الدولة في دمشق أن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فن العمارة والتحصين العسكري، هذا إضافة إلى ما أصابها من تهديم خلال زلازل ٥٩٧هـ/١٢٠٠م و ٥٩٨هـ/١٢٠١م، ولكنه لم يهدم كل شيء في القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني ودور السكن والدواوين التي كانت داخلها، وشرع بتشييد أسوار وأبراج القلعة الجديدة، ثم أخذ في حفر الخندق، وشاركه في مهمة البناء والإعمار أولاده وكبار الأمراء الأيوبيين، واختص كل منهم ببناء جانب من سور القلعة أو برج من أبراجها، وفي موضوع بناء القلعة يذكر ابن شداد أنه: «لما ملك العادل دمشق هدم قلعتها ووزع بناءها على أمرائه وجعلها اثني عشر برجاً، كل برج منها في قدر القلعة، وحفر لها خندقاً وأجرى إليه الماء»، واستمرت أعمال البناء من سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م إلى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م.

وإذا كانت أعمال الإنشاء والتعمير قد استمرت بعد وفاة الملك العادل فإن أكثرها ذات صفة مدنية كبناء الدور والقصور ومسجد أبي الدرداء وتجديد دار المسرة ودار رضوان.

لما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه فى حال غيبته فى الشام ، ويستدعى منه الأموال للإنفاق على الجند وغيرهم. ولما ملك السلطان مدينة حلب سنة (٥٧٩هـ) أعطاها لولده الملك الظاهر غازى، ثم أخذها منه، وأعطاها للملك العادل، الذي حكمها ١١٨٣-١١٨٦، ثم نزل عنها للملك الظاهر غازى لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين.

آخر الأمر أنه استقل بمصر سنة (٥٩٦هـ)، واستقرت له القواعد، ثم خطب له بحلب سنة (٥٩٨هـ). وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك اليمن سنة (٦١٢هـ)، وسير إليها ابنه الملك المسعود صلاح الدين. ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى:

- الملك الكامل الديار المصرية
- والملك المعظم البلاد الشامية
- والملك الأشرف البلاد الشرقية،
- الملك الأوحد نجم الدين أيوب ميا فارقين وتلك النواحى، وكان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى.

فتنة قفط

وفي سنة ٥٧٢/١١٧٦ هـ، فتنة كبيرة بمدينة قفط سببها أنَّ داعيًا من بني عبد القوي ادّعى أنه داود بن العاضد فاجتمع الناس عليه (الأقباط) فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك العادل أبا بكر

بن أيوب على جيش فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم.[١]

وكان ملكًا عظيمًا ذا رأيٍ ومعرفة تامة قد ضكته التجارب، حسن السيرة، جميل الطوية، وافر العقل، حازمًا فى الأمور صالحًا محافظًا على الصلوات فى أوقاتها، متبعًا لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء.

صنف له فخر الدين الرازى كتاب "تأسيس التقديس"، وكان رجلاً مسعودًا، ومن سعادته أنه خلف أولادًا لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد وملكوا خير البلاد.

وفاته

عند وصول الإفرنج إلى ساحل الشام ، توجه أمامهم إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب للقائهم، فلما وصل إلى عالقين -وهي قرية بظاهر دمشق.توفى بها فى سنة خمس عشرة وستمائة (٦١٥هـ).

الملك الكامل الأيوبي

هو أبو المعالى محمد بن محمد بن أيوب، ناصر الدين الملك الكامل، أحد سلاطين الدولة الأيوبية . ولد الملك الكامل فى مصر سنة (٥٧٦هـ) ست وسبعين وخمسمائة من الهجرة. وكان عارفًا بالأدب و الشعر ، وسمع الحديث ورواه. ولاّه أبوه الديار المصرية سنة (٦١٥هـ) خمس عشرة وستمائة، وحسنُت سياسته فيها، واتجه إلى توسيع نطاق ملكه، فاستولى على "حرّان"، و"الرّها"، و"سروج"، و" الرقة"، و"آمد" ثم امتلك الديار الشامية. وله مواقف مشهورة فى الجهاد بدمياط ضد الإفرنج، وكان حازمًا عفيفًا عن الدماء، مهيبًا، يباشر أمور الملك بنفسه، ومن أثاره المدرسة "الكاملية" بمصر. \

حياتة

نشأ فيها في كنف والده الملك العادل محمد بن أيوب. وقد استنابه العادل على حران والرها وسميساط حين وليها سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. ولما تملك العادل مصر سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م استدعاه من هناك، وجعله نائباً له على مصر. واستمرت نيابته على مصر حتى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م حيث قدمت إلى شواطئ دمياط ما يعرف بالحملة الصليبية الخامسة، وكان هدفها الاستيلاء على مصر، فزحف الكامل من القاهرة شمالاً بقواته لصدها، وعسكر في بلدة العادلية.

تمكن الصليبيون في آخر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م من الاستيلاء على برج السلسلة - وهو مؤذن بسقوط دمياط- فلم يتحمل العادل وقع الخبر -وكان قرب دمشق- فمات. انفرد الكامل بحكم مصر في أحرج الأوقات، وكان بعض أمراء الجيش يرغبون في تولية أخيه الفائز بن العادل، فلما أحس الكامل بدبيب المؤامرة عليه، رحل جنوباً من العادلية في ذي القعدة سنة ٦١٥هـ/١٢١٩م ونزل في موضع عرف فيما بعد بالمنصورة، واستغل الصليبيون انسحاب الكامل المفاجئ، فاحتلوا العادلية من دون قتال، وحاصروا دمياط.

وأبدى الكامل ـ وهو الحريص على مصر، والمتبع لسياسة أبيه العادل في مسالمة الصليبيين ـ استعداده لإعادة بيت المقدس لهم، ومعظم البلدان التي فتحها صلاح الدين لقاء رفع حصارهم عن دمياط، والجلاء عن مصر، إلا أن عرضه السخي هذا قوبل بالرفض من قبل الصليبيين، بل إنهم تمكنوا من الاستيلاء على دمياط في شعبان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وآثروا البقاء فيها منتظرين قدوم حملة إضافية بقيادة الامبراطور فريدريك الثاني.

انجازاتة

استغل الكامل فترة الانتظار الطويلة هذه بتحصين معسكره الجديد. ولما طال الانتظار على الصليبيين، ولم تأتِ الحملة المنتظرة قرروا الزحف نحو القاهرة، فاستولوا على فارسكور في جمادى الأولى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، وتابعوا طريقهم جنوباً، غير أنهم غفلوا أن وقت فيضان النيل قريب، فما إن حلَّ الفيضان في جمادى الآخرة [٦١٨هـ]/آب ١٢٢١م، حتى صار من المتعذر عليهم عبور بحر أشموم، وكانت قوات الكامل قد حاصرتهم من الخلف، قاطعة عليهم طريق الرجعة إلى دمياط، فحوصروا بالماء من كل جانب، وتبددت آمالهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا الاستسلام من دون قيد أو شرط على أن يسلموا دمياط، ويرحلوا عن مصر، ووافق الكامل، ووقع الصلح بينهما في ١٩ رجب ٦١٨هـ/١٢٢١م وتسلم الكامل دمياط، وعقد هدنة مع الصليبيين مدتها ثماني سنين، وكان أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى قد وصلا لنجدته في ٣ رجب ٦١٨هـ/١٢٢١م، فشهدا عقد الصلح والهدنة.

وعاد المعظم إلى دمشق، وأقام الأشرف بمصر عند أخيه الكامل، وسرعان ما انفرط عقد التحالف بين الأخوة وقد زال الخطر، فتوجس المعظم من تحالف أخويه ضده، فأسرع إلى التحالف مع خصمهما السلطان جلال الدين الخوارزمي، فرد عليه الكامل بالتحالف مع الامبراطور فريدريك الثاني، طالباً منه القدوم إلى عكا، ليشغل أخاه المعظم به، واعداً إياه بتسليمه بيت المقدس وبعض البلاد التي فتحها صلاح الدين.

واهتبل فريدريك هذه الفرصة التي قد تحسن صورته في أوربا ـ وهو الامبراطور المحروم من البابا لتقاعسه عن الذهاب إلى الشرق على رأس حملة صليبية كما وعد مراراً ــ فوصل إلى عكا في ٥ شوال ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، وكان المعظم قد توفي في أول ذي الحجة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وولى ابنه الناصر داود، فشعر الكامل بحرج موقفه من قدوم الامبراطور وقد زالت أسباب قدومه، غير أنه رأى أن لا بد من إتمام ما اتفق عليه خوفاً من قدوم حملة صليبية جديدة، وخاصة أن هدنته مع الصليبيين قد شارفت على الانتهاء، فتم الاتفاق على أن يسلم الكامل بيت المقدس للامبراطور من دون قراه، وأن يبقى سوره خراباً، ويبقى الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين، ويتعهد الامبراطور لقاء ذلك بمحالفة الكامل ضد أعدائه ولو كانوا من الصليبيين، وعقدت هدنة بينهما مدتها عشر سنوات، وقد أُبرم هذا الصلح في يافا في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وأثار هذا الاتفاق سخط المسلمين على الكامل، ولم يلتفتوا إلى ما أبداه من حجج.

وفيما كان الامبراطور يدخل القدس ألقى الكامل الحصار على دمشق، فتسلمها في أول شعبان ٦٢٦هـ/١٢٢٩م مخرجاً الناصر داود منها، ثم سلّم دمشق إلى أخيه الأشرف، وأخذ منه حران والرها وبلاد الشرق التي يتولاها.

وأمضى الكامل السنوات التالية وقد هدأ باله من جهة الصليبيين يتوسع في الشرق، فاستولى على آمد سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، مما أدى إلى وقوع نزاع بينه وبين سلاجقة الروم امتد حتى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م.

وكان الأشرف قد طلب من الكامل بلدة الرقة على الفرات، فامتنع الكامل من إعطائها له، فوقعت بين الأخوين جفوة، كادت توقع الحرب بينهما، ولم تنته إلا بوفاة الأشرف في دمشق في ٤ محرم سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م فتولاها بعهد منه أخوه الصالح إسماعيل، إلا أن الكامل كانت عينه على دمشق، فزحف نحوها، حيث استولى عليها في ٩ جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م.

وهكذا استطاع الكامل أخيراً أن يوحّد بلاد الشام ومصر مرة ثالثة بعد عمه صلاح الدين وأبيه العادل، غير أن الموت عاجله، ولما يمضِ على إقامته في دمشق سوى شهرين ونصف، حيث دفن بقلعتها في اليوم التالي، ثم بنيت له تربة مجاورة لجامع دمشق، نقل إليها بعد سنتين من وفاته.

ومع ما قد يقال عنه فقد كان ذكياً مهيباً، فطناً، محباً للعلم، مقرّباً للعلماء، لايكاد يخلو مجلسه منهم، وكان يلقي عليهم المشكلات من المسائل طالباً منهم أجوبة عنها، وقد بنى في القاهرة بين القصرين داراً للحديث هي دار الحديث الكاملية، ولا يُنسى بناؤه مدينة المنصورة.

وفاته

توفى الملك الكامل فى دمشق سنة (٦٣٥هـ) خمس وثلاثين وستمائة من الهجرة،

العادل أحمد بن أيوب

الملك العادل هو أبو بكر أحمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان، الملقب بالملك العادل سيف الدين، (٥٣٩ ـ ٦١٥هـ/١١٤٤ـ ١٢١٨م) أخو صلاح الدين، وأحد ملوك الدولة الأيوبية.

سيف الدين، أبو بكر، محمد بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ولد في بعلبك، ونشأ في كنف والده نجم الدين أيوب، وكان من كبار رجالات السلطان نور الدين محمود بن زنكي.

رحل إلى مصر مع أبيه سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، وكان صلاح الدين قد ولي وزارتها للعاضد سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين.

ولعل أول ما ولي من الأعمال لصلاح الدين حين استقل بحكم مصر بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م قيادته لجيش أرسل إلى أسوان لإخماد ثورة هناك تريد إرجاع الخلافة الفاطمية، وقد تمكن من القضاء عليها في صفر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ثم استنابه صلاح الدين على مصر لما توجه إلى بلاد الشام في ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ، ليبدأ سياسته في توحيدها مع مصر تحت سلطانه، وقد بقي نائباً له فيها حتى فتح صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م فولاه إياها، ثم أعاده إلى ولاية مصر سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م على أن يكون أتابك ابنه العزيز.

وعقب معركة حطين في ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وفتح صلاح الدين لعكا في مستهل جمادى الأولى، قدم العادل من مصر وسار إلى أخيه صلاح الدين وهو على حصار صور، ثم رافقه إلى عسقلان حتى فتحت في آخر جمادى الآخرة فولاه إياها، وشارك صلاح الدين في فتح القدس في رجب في السنة نفسها، وتولى استيفاء الفدية التي ضربت على الصليبيين فيها، ثم عاود مع صلاح الدين حصار صور، فلما امتنعت عليهما رحل صلاح الدين عائداً إلى عكا، وسار العادل إلى مصر، وقد بقي فيها حتى سنة

٥٨٤هـ/١١٨٨م حيث قدم إلى الشام، فأقامه صلاح الدين في تبنين ليحفظ البلاد أثناء توجهه لفتح جبلة، اللاذقية، وحين عاد صلاح الدين من فتح جبلة واللاذقية، أعطى العادل الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم أذن له بالعود إلى مصر.

وكان الصليبيون قد أعادوا تجميع صفوفهم، فخرجوا من صور نحو عكا لمحاصرتها، ونزلوا عليها في رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، فكتب صلاح الدين للعادل يستدعيه من مصر مع العساكر، فقدم عليه وبقي ملازماً له، ولما اشتد حصار الصليبيين لعكا بعد قدوم ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، فيما عرف بالحملة الصليبية الثالثة، سقطت عكا في أيديهم سنة ٥٨٧هـ.

ثم رحل فيليب إلى بلاده، وبقي ريتشارد سنة كاملة لم يستطع خلالها الزحف نحو بيت المقدس واستعادته، فآثر الصلح مع صلاح الدين، وبدأ بمفاوضات كان يتولاها العادل، وقد عرض عليه ريتشارد في إحداها أن يتزوج من أخته ملكة صقلية، ووافق العادل، ثم اكتشف أنها كانت مجرد خدعة.

وتوفي أثناء ذلك تقي الدين عمر في رمضان سنة ٥٨٧هـ، وكان يلي إضافة إلى حماة: الرها وحران وسميساط، فولى صلاح الدين تلك البلاد للعادل على أن ينزل عن إقطاعه في مصر، وأن يبقى له في الشام الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، فسار العادل إلى حران في جمادى الأولى سنة ٥٨٨هـ يرتب أمورها، ثم عاد في آخر جمادى الآخرة، فعاود ريتشارد التفاوض معه حتى عقدت الهدنة، التي عرفت بصلح الرملة، ومدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها في الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ.

وفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م توفي صلاح الدين فقدم العادل من الكرك إلى دمشق، ولم يطل المقام فيها بل رحل طالباً بلاده الرها وحران وسميساط خوفاً عليها من حاكم الموصل.

وكان صلاح الدين قبل وفاته قد ولى ابنه الأفضل على دمشق وأعمالها، وولى ابنه العزيز عثمان مصر، وولى ابنه الظاهر غازي حلب وأعمالها.

وسرعان ما نشب بين الأخوين العزيز والأفضل صراع، حاصر العزيز على إثره دمشق مرتين، الأولى في سنة ٥٩٠هـ، والثانية سنة ٥٩١هـ، وقد استعان الأفضل فيهما بعمه العادل الذي استفاد من هذا الصراع بين الأخوين بعودة إقطاعه في مصر في الأولى، ثم بإقامته في مصر بالثانية استعداداً للانقضاض على دمشق.

وقد سنحت له الفرصة في سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦م حيث سقطت دمشق بيد العزيز والعادل، وأخرج الأفضل منها إلى صرخد، وأصبح العادل على إثرها نائباً للعزيز في دمشق وأعمالها، وحين قدمت الحملة الألمانية إلى عكا ٥٩٣هـ/١١٩٧م استطاع العادل أن يقف في وجهها، ويستولي على يافا بهجوم مباغت، ورد الصليبيون على ذلك باستيلائهم على بيروت، غير أن العادل تجنب الاصطدام بهم في معركة، مفضلاً عقد هدنة معهم، وقد تم له ذلك في سنة ٥٩٤ه/١١٩٨م، وكانت مدة الهدنة خمس سنين وثمانية أشهر، وأتاحت له هذه الهدنة الاستيلاء على مصر عقب وفاة العزيز عثمان في سنة ٥٩٥هـ، طارداً منها الأفضل الذي حاول حكمها نائباً لابن العزيز، ثم خلع ابن العزيز، واستقل بحكم مصر في سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، واستدعى ابنه الكامل من حران ليكون نائبه فيها.

وهكذا تمكن العادل بعد نحو سبع سنين من وفاة صلاح الدين أن يصبح سلطان مصر وبلاد الشام، وأن يعيد توحيد البيت الأيوبي تحت سلطانه، وكان يعتقد أنه أحق الناس بعد أخيه بالسلطنة، غير أنه لم يتابع سياسة أخيه صلاح الدين في مقاومة الصليبيين، بل آثر مسالمتهم، فما كانت تنتهي هدنة حتى يسارع إلى تجديدها

حتى انتهت آخر هدنة في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م حيث كانت الحملة الصليبية الخامسة في طريقها إليه، ولما وصلت طلائعها إلى عكا خرج من مصر إلى الشام، فبرز الصليبيون لقتاله، فانحرف عنهم إلى بيسان من الأردن، ثم اتجه نحو دمشق.

وما كاد يستقر فيها حتى فوجئ بالحملة الصليبية تصل إلى عكا، ثم تشق طريقها بحراً نحو دمياط، وقد استطاع الصليبيون في آخر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م من الاستيلاء على برج دمياط، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبر النيل لتمنع المراكب التي في البحر من دخول دمياط، وكان سقوط هذا البرج مؤذناً بسقوطها، فلما وصل خبره إلى العادل دق على صدره حزناً وأسفاً على ما جرى، ووقع مريضاً، حيث توفي، فدفن بقلعة دمشق، ثم نقل في سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م إلى تربته في المدرسة العادلية الكبرى، وكان قد بدأ بإنشائها في سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م وأتمها من بعده ابنه المعظم عيسى.

ومن أكبر إنجازات الملك العادل إعادة بنائه القلعة الأيوبية (قلعة دمشق الحالية) فقد رأى حين آلت إليه أمور الدولة في دمشق أن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فن العمارة والتحصين العسكري، هذا إضافة إلى ما أصابها من تهديم خلال زلازل ٥٩٧هـ/١٢٠٠م و ٥٩٨هـ/١٢٠١م، ولكنه لم يهدم كل شيء في القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني ودور السكن والدواوين التي كانت داخلها، وشرع بتشييد أسوار وأبراج القلعة الجديدة، ثم أخذ في حفر الخندق، وشاركه في مهمة البناء والإعمار أولاده وكبار الأمراء الأيوبيين، واختص كل منهم ببناء جانب من سور القلعة أو برج من أبراجها، وفي موضوع بناء القلعة يذكر ابن شداد أنه: «لما ملك العادل دمشق هدم قلعتها ووزع بناءها على أمرائه وجعلها اثني عشر برجاً، كل برج منها في قدر القلعة، وحفر لها خندقاً وأجرى إليه الماء»، واستمرت أعمال البناء من سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م إلى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م.

وإذا كانت أعمال الإنشاء والتعمير قد استمرت بعد وفاة الملك العادل فإن أكثرها ذات صفة مدنية كبناء الدور والقصور ومسجد أبي الدرداء وتجديد دار المسرة ودار رضوان.

أخوته

- **سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية محرر القدس** السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي(١١٣٧–١١٩٣).
- **صاحب اليمن** الملك العزيز ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن الأمير نجم الدين أيوب (ت. ١١٩٧).
- **صاحب بعلبك** الملك نور الدولة شاهنشاه بن الأمير نجم الدين أيوب (ت. ١١٤٨).
- **صاحب الإسكندرية**المعظم شمس الدولة تورانشاه بن الأمير نجم الدين أيوب(ت. ١١٨١).
- تاج الملوك أبو سعيد بوري (ت. ١١٨٤)
- **ست الشام** فاطمة الأيوبية الشهيرة بست الشام هي زوجة ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص.
- واقفة المدرسة الصاحبة ربيعة خاتون الصاحبة زوجة السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب أربيل.
- عدد غير معروف من البنات.

لما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه فى حال غيبته فى الشام ، ويستدعى منه الأموال للإنفاق على الجند وغيرهم. ولما ملك السلطان مدينة حلب سنة (٥٧٩هـ) أعطاها لولده الملك الظاهر غازى، ثم أخذها منه، وأعطاها للملك العادل، الذي حكمها ١١٨٣-١١٨٦، ثم نزل عنها للملك الظاهر غازى لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين.

آخر الأمر أنه استقل بمصر سنة (٥٩٦هـ)، واستقرت له القواعد، ثم خطب له بحلب سنة (٥٩٨هـ). وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك اليمن سنة (٦١٢هـ)، وسير إليها ابنه الملك المسعود صلاح الدين. ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى:

- الملك الكامل الديار المصرية
- والملك المعظم البلاد الشامية
- والملك الأشرف البلاد الشرقية،
- الملك الأوحد نجم الدين أيوب ميا فارقين وتلك النواحى، وكان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى.

فتنة قفط

وفي سنة ٥٧٢/١١٧٦ هـ، فتنة كبيرة بمدينة قفط سببها أنَّ داعيًا من بني عبد القوي ادّعى أنه داود بن العاضد فاجتمع الناس عليه (الأقباط) فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم.[1]

وكان ملكًا عظيمًا ذا رأيٍ ومعرفة تامة قد ضكته التجارب، حسن السيرة، جميل الطوية، وافر العقل، حازمًا فى الأمور صالحًا محافظًا على الصلوات فى أوقاتها، متبعًا لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء.

صنف له فخر الدين الرازى كتاب "تأسيس التقديس"، وكان رجلاً مسعودًا، ومن سعادته أنه خلف أولادًا لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد وملكوا خير البلاد.

وفاته

عند وصول الإفرنج إلى ساحل الشام ، توجه أمامهم إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب للقائهم، فلما وصل إلى عالقين -وهي قرية بظاهر دمشق.توفى بها فى سنة خمس عشرة وستمائة (٦١٥هـ).

الناصر داود

الناصر داود السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن السلطان الملك المعظم عيسى ابن العادل .

مولده

بدمشق سنة ثلاث وست مائة .

أ جاز له المؤيد الطوسي ، وأبو روح الهروي ، وسمع في كبره من أبي الحسن القطيعي ببغداد ، ومن ابن اللتي بالكرك .

وكان فقيها حنفيا ذكيا ، مناظرا ، أديبا شاعرا بديع النظم ، مشاركا في علوم ، تسلطن عند موت أبيه ، وأحبه أهل البلد ، فأقبل عماه الكامل والأشرف فحاصراه أشهرا ، ثم انفصل عن دمشق في أثناء سنة ست وعشرين ، وقنع بالكرك ، وأعطوه معها نابلس وعجلون والصلت وقرى بيت المقدس سوى البلد فإنه أخذه الأنبروز الإفرنجي الذي أنجد الكامل ، ثم زوجه الكامل بابنته في سنة تسع وعشرين ، ثم وقع بينهما ففارق البنت ، ثم بعد سنة ثلاثين سار إلى المستنصر بالله وقدم له تحفا واجتمع به وأكرمه بعد امتناع بعمل قصيدته الفائقة وهي : ودان ألمت بـالكثيب ذوائبـه

ومن حسنات الناصر أن عمه أعطى الفرنج القدس فعمروا لهم قلعة فجاء الناصر ونصب عليها المجانيق وأخذها بالأمان وهد القلعة ، ونظف البلد من الفرنج .

ثم إن الملك الصالح أساء إلى الناصر وجهز عسكرا فشعثوا بلاده ، وأخذوا منها ، ولم يزل يناكده وما بقي له سوى الكرك ، ثم حاصره في سنة ٦٤٤ فخر الدين ابن الشيخ أياما وترحل ، وقل ما بيد الناصر ، ونفذ رسوله الخسروشاهي من عنده إلى الصالح ، ومعه ابنه الأمجد أن يعطيه حبزا بمصر ويتسلم الكرك فأجابه ، ومرض ، فانثنى عزم الناصر ، وضاق الناصر بكلف السلطنة فاستناب ابنه عيسى بالكرك ، وأخذ معه جواهر وذخائر ، فأكرمه صاحب حلب ، ثم سار إلى بغداد فأودع تلك النفائس عند المستعصم وهي بنحو من مائة ألف دينار ، فلم يصل إلى شيء منها .

وبعد تألم الأمجد وأخوه الظاهر لكون أبيهما استناب عليهما المعظم عيسى مع كونه ابن جارية ، وهما فأمهما بنت الكامل ، وكانت أمهما محسنة إلى الملك الصالح أيام اعتقاله بالكرك ؛ لأنه أخوها ، فكان هذان يحبانه ، ويأنس بهما ، فاتفقا مع أمهما على القبض على المعظم ، ففعلا ، واستوليا على الكرك ، وسار الأمجد بمفاتيحها إلى الصالح ، وتوثق منه فأعطاه خبرا بمصر ، وتحول إلى باب الصالح بنو الناصر فأقطعهم ، وعظم هذا على الناصر لما سمع به فاغتم الصالح أن مات ، وانضم الناصر إلى الناصر لما تسلطن بالشام ، فتمرض السلطان ، فبلغه أن داود تكلم في أمر الملك فحبسه بحمص مدة ، ثم جاءت شفاعة من الخليفة ، فأطلق فسار في سنة ثلاث وخمسين إلى بغداد ليطلب وديعته ، فما مكن من العبور إلى بغداد ، فنزل بالمشهد وحج وتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم منشدا قصيدة ثم إنه مرض بدمشق ومات ، ودفن بالمعظمية عند أبيه .

وقد روى عنه الدمياطي في " معجمه " ، فقال : أخبرنا العلامة الفاضل الملك الناصر .

وفاتة

مات في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وست مائة مات بطاعون رحمه الله ، وشيعه السلطان من البويضاء وحزن عليه ، وقال : هذا كبيرنا وشيخنا ، وكانت أمه خوارزمية عاشت بعده .

توران شاه (- ١٢١٥٠) ، بالإنجليزية Turan Shah أو الملك المعظم غياث الدين توران شاه ، هو إبن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تولى عرش مصر بعد موت أبيه ، لفترة قصيرة. وهو آخر سلاطين الأيوبيين في مصر ، وبموته انتهت دولة الأيوبيين ، وخرجت دولة المماليك إلى الوجود.

استيلاء الصليبيون على دمياط

نجح الصليبيون في حملتهم السابعة بقيادة لويس التاسع في الاستيلاء على مدينة دمياط في ٤ يونيو ١٢٤٩ ، واتخاذها قاعدة لمواصلة زحفهم نحو القاهرة ، ونتيجة لذلك اضطر سلطان مصر الصالح أيوب إلى نقل معسكره إلى المنصورة ، ورابطت سفنه في النيل تجاه المدينة ، واستقبلت المدينة أفواجا من المجاهدين الذين زحفوا إليها من أماكن مختلفة من العالم الإسلامي ؛ مشاركة لإخوانهم المصريين في جهادهم ضد الصليبيين. [١]

لم يهنأ الصليبيون باستيلائهم على دمياط ، فقد اشتدت العمليات الفدائية ، والحرب الخاطفة، ونجحت البحرية المصرية في حصار قوات الحملة ، وتدمير خطوط إمدادها في فرع دمياط. واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر منذ أن سقطت دمياط، ولويس التاسع ينتظر قدوم أخيه الكونت "دي بواتيه"، فلما حضر تحركت الحملة الصليبية صوب القاهرة، فخرجت قواتهم من دمياط يوم السبت الموافق ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩.

شجرة الدر في الحكم

توفي الملك الصالح أيوب في ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ فقامت زوجته شجرة الدر بترتيب شئون الدولة وإدارة شئون الجيش ، وأخفت نبأ موت السلطان ، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ابن زوجها وولي العهد ، تحثّه على القدوم ، ومغادرة حصن كيفا بأطراف العراق حيث يقيم؛ ليتولى عرش السلطنة خلفًا لأبيه.

لم تفلح محاولات شجرة الدر في إخفاء خبر وفاة السلطان طويلاً ، فتسرب نبأ الوفاة إلى الصليبيين ، فسارعوا في التحرك ، وزحفوا جنوبًا على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط ، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل ، ونجحت طلائع قواتهم في اقتحام معسكر المسلمين بالمنصورة فانتشر الذعر بينهم ، ودخل الصليبيون المنصورة ، وانتشرت جنودهم في أزقة المدينة، وباتت المدينة على وشك السقوط، وظن المسلمون أنهم قد أُحيط بهم، غير أن فرقة من المماليك البحرية جمعت قواها خارج المدينة ، ثم أطبقت على الصليبيين بقيادة بيبرس البندقداري فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلاً، وشارك أهل المدينة في المعركة بإقامة المتاريس في الشوارع؛ لعرقلة الخيالة الصليبية، وقذف الفرسان بالحجارة والطوب ؛ مما عجّل بالنصر وإلحاق الهزيمة القاسية بالصليبيين في ٨ فبراير ١٢٥٠.

ولم تمض أيام على هذا النصر حتى قام المسلمون بهجوم جديد في فجر يوم الجمعة الموافق ٨ ذي القعدة ٦٤٧هـ على معسكر جيش الصليبيين الذي كان مرابطًا بالقرب من أشموم طناح لكن الملك لويس تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح.

توران شاه سلطان مصر

غادر توران شاه حصن كيفا ومعه خمسون من خاصته، حتى إذا وصل إلى مدينة الصالحية بمصر أُعلن موت الصالح أيوب ، ونودي بسلطنة توران شاه وعمره وقتذاك خمس وعشرون سنة ، ثم وصل إلى المنصورة في ٢٥ فبراير ١٢٥٠ ، وتسلم مقاليد الأمور من شجرة الدر ، وتولى قيادة الجيش بنفسه، وبدأ في إعداد خطة لإجبار لويس التاسع على التسليم.

وتتلخص خطة توران شاه في التحول عن متابعة الهجوم البري على مواقع الصليبيين ، إلى خطة نهرية محورها تجويعهم في معسكرهم بقطع مواصلاتهم في النيل مع دمياط. وتنفيذًا لهذه الخطة أمر السلطان بسحب عدد من المراكب المصرية الراسية قريبًا من موقع الأحداث، ثم تفكيكها لتُحمل على ظهور الجمال إلى بحر المجلة، ثم تركيبها وشحنها بالمقاتلين هناك لإقلاعها شمالاً إلى مصب البحر في النيل؛ حتى تكون خلف الخطوط الصليبية في النيل.

وبهذه الوسيلة تمكنت السفن المصرية من قطع خطوط الإمداد عن الصليبيين في المنصورة؛ فساءت أحوالهم، وتفشت الأمراض والأوبئة بين الجنود لاضطرارهم إلى الشرب من ماء النيل الذي غدت مياهه ملوثة بجثث القتلى الطافية، وحلّ بهم الجوع، واضطر الملك لويس إلى طلب الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس، فرُفض طلبه.

ومن العجيب أن يفرض الملك الفرنسي شروطًا ، وهو في موقف لا يُحسد عليه. ثم لم يلبث أن نشبت معركة هائلة في فارسكور قضى فيها المسلمون تمامًا على الجيش الصليبي ، ووقع الملك أسيرًا، وسيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سُجِن في دار ابن لقمان.

لقد كان توران شاه شخصية عابثة! فلقد اتصف هذا السلطان الشاب بسوء الخلق، والجهل بشئون السياسة والحكم، وأعماه الغرور الذي ركبه بعد النصر على لويس التاسع ملك فرنسا عن رؤية أفضال ومزايا من حوله، فقد بدأ من ناحية يتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر، واتهمها بإخفاء أموال أبيه، وطالبها بهذا المال، بل وهددها بشدة حتى دخلها منه خوف شديد، ولم يحفظ لها جميل حفظ الملك له بعد موت أبيه، وحفاظها على سير الأمور لحين قدومه، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإنه بدأ يتنكر لكبار أمراء المماليك، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، ولم يحفظ للمماليك جميل الانتصار الرائع الذي حققوه في موقعة المنصورة، فبدأ يقلل من شأنهم، ويقلص من مسئولياتهم، وبدأ على الجانب الآخر يُعَظِّمُ من شأن الرجال الذين جاءوا معه من حصن كيفا، وبدا واضحًا للجميع أنه سيقوم بعمليات تغيير واسعة النطاق في السلطة في مصر.

كل هذا في غضون الأشهر الثلاثة الأولى في مصر، وبعد موقعة فارسكور مباشرة.

وخافت شجرة الدرِّ على نفسها، وأَسَرَّت بذلك إلى المماليك البحرية، وخاصةً فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، وكان المماليك البحرية يُكِنُّونَ لها كل الاحترام والولاء لكونها زوجة أستاذهم الملك الصالح رحمه الله، وكانت علاقة الأستاذية هذه من القوة بحيث تبقى آثارها حتى بعد موت الأستاذ.

ثم إن شجرة الدرِّ قد وجدت نفس الوساوس في نفوس المماليك البحرية في ذات الوقت، ومن ثَمَّ اجتمع الرأي على سرعة التخلص من (توران شاه) قبل أن يتخلص هو منهم؛ فقرروا قتله.

واتفقت شجرة الدرِّ مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل (توران شاه)، وبالفعل تمت الجريمة في يوم ٢٧ من المحرم سنة ٦٤٨ هجرية، أي بعد سبعين يومًا فقط من قدومه من حصن كيفا واعتلائه عرش مصر، وكأنه لم يقطع كل هذه المسافات لكي (يحكم) بل لكي (يُدفَن)!!

وهكذا بمقتل (توران شاه) انتهى حكم الأيوبيين تمامًا في مصر، وبذلك أُغْلِقَتْ صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي.

نتيجة للصراع بين أمراء الأيوبيين الذي استمر نحو ستين سنة متصلة منذ موت صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هجرية، وإلى انتهاء الدولة الأيوبية في سنة ٦٤٨ هجرية، أَدَّى ذلك إلى الفُرْقَة الشديدة، والتشرذم المقيت، بل كان يصل أحيانًا الخلاف وانعدام الرؤية إلى درجة التعاون مع الصليبيين ضد المسلمين!! أو التعاون مع التتار ضد المسلمين!! [١].

وهكذا انتهى حكم الأيوبيين لمصر، وبدأت حقبة جديدة في ظل دولة أخرى هي دولة المماليك.

نهاية توران شاه

لم يحسن توران شاه بن الصالح أيوب معاملة المماليك البحرية أصحاب الفضل في هذا النصر العظيم، وتنكر أيضًا لشجرة الدر وأساء معاملتها وتهددها. فبدلاً من أن يعترف بالجميل لهم جميعًا حسدهم على مكانتهم التي بلغوها بفضل شجاعتهم وبأسه م، وبدلاً من أن يقربهم إليه باعتبارهم أركان دولته أعرض عنهم، وخشي من نفوذهم ، وأوجس منهم خيفة ، بل وأضمر لهم السوء، وكان لخفته وهوجه يجاهر بذلك.

يضاف إلى ذلك سوء تدبيره وفساد سياسته بإبعاده كبار رجال دولته من الأمراء، وتقريبه رجاله وحاشيته ممن قدموا معه إلى مصر، وإغداقه الأموال عليهم، واستئثارهم بالمناصب دون غيرهم.

تضافرت تلك الأسباب وقوّت من عزيمة المماليك على التخلص من توران شاه قبل أن يبطش هو بهم ، فاتفقوا على قتله ، وعهدوا بتنفيذ هذه المهمة إلى أربعة من قادتهم ، منهم فارس الدين أقطاي ، و بيبرس البندقداري ، فنجحوا في قتله في فارسكور في صباح يوم الإثنين الموافق ٢ مايو ١٢٥٠ وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية في مصر ، وبدأ عصر جديد.

اسباب سقوط الدولة الأيوبية والتي من أهمها:

دحر الحملة الصليبية السابعة وصور من شجاعتهم وعن أسباب هزيمتهم ونتائجها والتي كان من أهمها:
١ ـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك.
٢ـ وعجز فرنسا عن تحقيق أهدافها.
وعن مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية وكيفية مقتل تورانشاه؟ واسباب سقوط الدولة الأيوبية والتي من أهمها:

١ـ توقف منهج التجديد والإصلاح.
٢ـ الظلم.

٣ـ الترف والانغماس في الشهوات.
٤ـ تعطيل الخيار الشوري.
٥ـ النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية.
٦ـ موالاة النصارى.
٧ـ فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري.
٨ـ ضعف الحكومة المركزية.
٩ـ ضعف النظام الإستخباراتي.
١٠ـ غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي.
١١ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه.

الحملة الصليبية السابعة :
استمرت الحملات الصليبية تنهال على الشام ومصر منذ عام ٤٨٩ هـ حتى سنة ٦٤٧هـ، وقد مضى منها ست حملات صليبية قادها معظم ملوك أوروبا مثل ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفردريك الثاني ملك ألمانيا وبها ميو ملك صقلية وقبرص وغيرهم، حتى وصلنا إلى الحملة الصليبية السابعة، وكان المحرك الأكبر لهذه الحملة الصليبية هو ملك فرنسا لويس التاسع الذي يلقب بلويس التقي، ولكن ما السبب وراء تلك الحملة ؟ السبب وراء ذلك أن لويس التاسع قد أصابه مرض شديد كاد أني هلك بسببه فنذر إن شفاه الله أن يقوم بشن حملة صليبية ضد الكفار [يعني المسلمين]، وكان ذلك بإشارة القساوسة والرهبان، مما يوضح الروح الدينية الخالصة التي تسيطر على عقول صليبيي أوروبا .
أعد لويس التاسع حملته بعناية كبيرة وزودها بخيرة الفرسان الفرنسيين والخيول والسلاح وتوجه إلى الشام حيث ما زالت هناك بعض الإمارات والنقاط الصليبية فنزل إلى عكا وبقي بها قليلاً استعدادًا للهجوم على الديار المصرية التي كانت في هذا الوقت أقوى الممالك الإسلامية عمومًا بعد اجتياح التتار الكاسح لديار الإسلام على الجبهة الشرقية، وقرر لويس التاسع أن تكون دمياط هي أولى أهداف الحملة الصليبية ودمياط عمومًا كانت محط أنظار كل الحملات الصليبية القادمة من أوروبا على مصر .

الأوضاع داخل الديار المصرية :
في تلك الفترة كان يحكم مصر والشام معًا الملك الصالح أيوب، وكان رجلاً صالحًا من عظماء بني أيوب تولى الأمر بعد أخيه الكامل محمد فصحح كثيرًا من أخطائه خاصة جنايته العظيمة بالتنازل عن بيت المقدس للملك فريدريك الثاني سنة ٦٢٥هـ، واستطاع الصالح أيوب أن يعيد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢هـ، واسترد دمشق سنة ٦٤٣هـ وعسقلان سنة ٦٤٥هـ، وأعاد للدولة الأيوبية هيبتها ومجدها السابق الذي فرط فيه أخوه الكامل محمد .
عانى الصالح أيوب كثيرًا بسبب عمه إسماعيل الذي كان واليًا على دمشق، وكان نكبة على الإسلام وأهله حالف الصليبيين وأدخلهم دمشق وتعاون ضد ابن أخيه أيوب، ودخل في حروب طويلة معه من أجل الاستيلاء على مصر مما أضعف من قوة الصالح أيوب وأنهك جيوشه من كثرة القتال مع الصليبيين ومن عاونهم .

احتلال دمياط :
وصل لويس التاسع بجيش جرار يقدر بمائة ألف مقاتل إلى مدية دمياط وذلك بحرًا وهجم على المدينة بسرعة ففر كل من فيها من الجند والحراس ومعهم بعض العامة، واستولى الصليبيون بسهولة على المدينة وقاموا بارتكاب مذابح مروعة بحق أهل البلد المسلمين وحولوا الجوامع والمساجد إلى كنائس وذلك في شهر ربيع الأول ٦٤٧هـ.
أعلن الصالح أيوب النفير العام في الديار المصرية، وأتته الجنود من كل مكان، وأسرع لمنازلة الصليبيين، وقام ببناء مدينة مقابلة لدمياط حيث معسكر الصليبيين وسماها [المنصورة] وقام بالقبض على الجنود الفارين

من وجه الصليبيين بدمياط وشنق بعضهم تعزيرًا لهم على التولي يوم الزحف، ولام الباقي على ترك المصابرة قيلاً ليرهبوا عدو الله وعدوهم، وكان الصالح أيوب في تلك الفترة مريضًا، ولكنه لشدة شجاعته وجلده لم يظهر التوجع الألم أمام أحد .
تقدم الملك الصليبي نحو المنصورة حيث معسكر المسلمين محاذرًا الاقتراب من ضفة فرع دمياط حتى لا يقع في نفس خطأ الحملة الصليبية الخامسة عندما دخل قائدها [جان دي بريين] في اتجاه خاطئ أفشل لحملة بأسرها، ولكن جماهير المصريين المتطوعين للجهاد ضد الصليبيين أقبلوا بأعداد كبيرة، وذلك لشن حرب عصابات ضد الجيش الصليبي، وقام المصريون ببطولات رائعة وأعمال فدائية في غاية الشجاعة والمكر والطرافة أيضًا ضد الصليبيين .

وفاة الصالح أيوب :

في تلك الأثناء تزايدت العلة والمرض على الصالح أيوب حتى مات رحمه الله في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ، ولم يكن عنده ساعة موته سوى جاريته وأم ولده خليل [شجرة الدر]، وكانت امرأة عاقلة ذات حزم ودهاء فأخفت موته على الناس حتى لا يفت ذلك في عضد الناس وهم أمام عدوهم فعد ذلك في غاية الحكمة والتعقل وأظهرت أنه مريض مدنف لا يقوى على الحركة وبقيت تعلم عنه بعلامته وأرسلت إلى كبار الأمراء وأطلعتهم على خبر موته وتشاوروا فيمن يولونه على الجيش بعده فاجتمعوا على توليه ابنه توران شاه .
أرسلوا على توران شاه وكان واليًا على [كيفا]، وكان مجافيًا لأبيه حال حياته فأرسلوا إليه فجاء سريعًا فملكوه عليهم وبايعوه جميعًا، وكان الصليبيون في هذا الوقت قد اقتربوا من قرية [شارم ساح] والتي عرفت بعد ذلك بمدينة [فارسكور] .

معركة فارسكور :

جاء توراه شاه وقاد جموع المسلمين واستعد للصدام مع الصليبيين عند مدينة [فارسكور] وبالفعل كان الصدام يوم الأربعاء ٣ محرم سنة ٦٤٨هـ، ودارت جيوش المسلمين حول الصليبيين واستولوا على مراكبهم التي جاءوا بها من الشام في حملتهم الصليبية وشعر الصليبيون أنهم محاصرون بين البحر والمسلمين فاستماتوا في القتال، ولكن هيهات هيهات أخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب حتى قتل منهم ثلاثون ألفًا وغرق الكثيرون ووقع في الأسر الملك لويس التاسع وأخوه .
وضع لويس التاسع سجينًا في دار ابن لقمان بالمنصورة حتى ينظر توراه شاه في أمره وأخذ رداؤه الذي كان يلبسه أثناء القتال وأرسله مع رسول إلى دمشق ليبشر به الناس بالانتصار الكبير على الصليبيين ودخل المسلمون كنيسة مريم فأقاموا بها فرحًا لما علموا بالنصر وكادوا أن يخربوها، وكانت النصارى ببعلبك قد فرحوا حين أخذ الصليبيون دمياط فلما وصلت أخبار هزيمتهم لبسوا السواد وأعلنوا الحداد فأرسل والي البلد إليهم فجمعهم وأوقفهم صفًا وأمر يهود البلد أن يصفعوهم ففعلوا .
أرسلت مرجريت زوجة لويس التاسع الملهوفة على زوجها بفدية ضخمة لتوران شاه ليفك أسره فقبل المسلمون ذلك، ودفع لويس التاسع لفداءه هو وعساكره مبلغ عشرة ملايين فرنك، وقد أقسم بأغلظ الأيمان ألا يعود لحرب المسلمين مرة أخرى،

- **موقعة المنصورة**

معركة دارت رحاها في مصر من ٨ إلى ١١ فبراير من سنة ١٢٥٠ بين القوات الصليبية (الفرنج) بقيادة لويس التاسع (بالفرنسية: Louis IX) ملك فرنسا، الذي عُرف بالقديس لويس فيما بعد،[٦]

والقوات الأيوبية بقيادة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ.[٧] وفارس الدين أقطاي الجمدار وركن الدين بيبرس البندقداري.

- أسفرت المعركة عن هزيمة الصليبين هزيمة كبرى منعتهم من إرسال حملة صليبية جديدة إلى مصر، وكانت بمثابة نقطة البداية التي أخذت بعدها الهزائم تتوالى عليهم حتى تم تحرير كامل الشام من الحكم الصليبي.
- أخذ الانحطاط يتسرّب إلى جسم الدولة العربية بعد هذه الفترة، إذ أنه بعد نهاية المعركة كانت الجيوش المغولية قد دمرت بغداد وأسقطت الخلافة العباسية مما اضطر العرب لمواجهتهم، وجعل الدولة الإسلامية منهكة ثقافيا واقتصاديا بعد هزيمة الزحف المغولي، فساد الفقر والتخلف في فترات متقطعة واستمر الأمر على هذا المنوال حتى سقوط المنطقة العربية بيد العثمانيين الأتراك في القرن السادس عشر.

الوضع العام قبل المعركة

في النصف الأول من القرن الثالث عشر كانت الدولة الأيوبية تحكم مصر والشام. في عام٦١٨هـ / ١٢٢٠م قام المغول بقيادة جنكيز خان بمهاجمة الدولة الخوارزمية، على بوابة العالم الإسلامي الشرقية، ودمروها مما أدى إلى تشرذم الخوارزمية وشرود أجنادهم الذين راحوا بعد زوال دولتهم يعرضون خدماتهم على ملوك الممالك الإسلامية المجاورة، وكان من أولئك الملوك السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي رحب بهم واستفاد من خدماتهم خاصة في الشام.[٨] في عام ٦٤١ هـ/١٢٤٤م استولى الخوارزمية حلفاء الصالح أيوب على بيت المقدس. وكان بيت المقدس في أيدي الصليبيين منذ معاهدة سنة٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م بين الملك الكامل وفريدريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة إبان الحملة الصليبية السادسة والتي بموجبها تعهد فريدريك بالتحالف مع الملك الكامل ضد أعدائه ووقف الحملات الصليبية في مقابل تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس للصليبيين.[٩]

هزيمة الصليبيين الفرنسيين في غزة.

في ١٧سنة ٦٤١هـ / أكتوبر ١٢٤٤م شن الصليبيون هجوماً برياً ضخماً على مصر، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة عند غزة [١٠] على يد الأمير ركن الدين بيبرس [١١] وعناصر خوارزمية من جهة والصليبيين وملوك أيوبيين من سوريا متصارعين مع السلطان الأيوبي الصالح أيوب من جهة أخرى، انتهت بهزيمة الصليبيين وحلفائهم هزيمة كبرى، مما مكن المسلمين من فرض سيادتهم الكاملة على بيت المقدس وبعض معاقل الصليبيين في الشام.[١٢]

كان لسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين صدى قوي في أوروبا يشبه صدى سقوطها في يد صلاح الدين الأيوبي في سنة٥٨٥هـ ١١٨٧م،[٨] مما جعل الأوروبيين يدعون إلى قيام حملة صليبية كبيرة تمكنهم من استعادة بيت المقدس، وكان ملك فرنسا لويس التاسع من أكبر المتحمسين للحملة الجديدة. كان الصليبيون يُدركون أن مصر التي صارت تمثل قلعة الإسلام وترسانته العسكرية [١٣] ومصدر القوة البشرية الرئيسي

للمسلمين،[١٤] وهي العائق الرئيسي الذي يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس، وأنهم لن يتمكنوا من احتلال كل الشام وبيت المقدس دون الإجهاز على مصر أولاً.[١]

التجهيز لغزو مصر

في نوفمبر من عام٦٤١ هـ، ١٢٤٤، مباشرة بعد هزيمة الصليبيين عند غزة، قام "روبرت" بطريرك بيت المقدس بإرسال "جاليران" أسقف بيروت إلى ملوك وأمراء أوروبا يطالبهم بإرسال إمدادات عاجلة إلى الأراضي المقدسة لمنع سقوط مملكة بيت المقدس بالكامل في أيدي المسلمين.[١٥] وفي عام ١٢٤٥، أثناء انعقاد مجمع ليون الكنسي الأول، وبحضور روبرت بطريرك بيت المقدس، منح بابا الكاثوليك إينوسينت الرابع تأييده الكامل للحملة الصليبية السابعة التي تحمس لها لويس التاسع ملك فرنسا وكان يحضر لها، وقام بابا الكاثوليك على إثر ذلك بإرسال "أودو" كاردينال فراسكاتي للترويج للحملة في كافة أنحاء فرنسا، وفُرضت ضرائب على الناس لتمويلها، ووافقت جنوة ومرسيليا على الاضطلاع بتجهيز السفن اللازمة، أما البندقية فقد فضلت عدم المشاركة بسبب علاقاتها التجارية الواسعة مع مصر.[١٦]

كان من أهداف الحملة الصليبية السابعة، هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، والقضاء على الدولة الأيوبية التي كانت تحكم مصر والشام، وإعادة احتلال بيت المقدس. لتحقيق ذلك، جهز الصليبيون الحملة بتأن في ثلاث سنوات، وحاولوا إقناع المغول بالتحالف معهم ضد المسلمين حتى يتمكنوا من تطويق العالم الإسلامي من المشرق والمغرب [١٧] مما يصعب على مصر القتال على جبهتين في آن واحد فيسهل عليهم الإطاحة بالعالم الإسلامي بضربة واحدة.[١٨] قام البابا بإرسال مبعوثه الفرنسيسكاني "جيوفاني دا بيان كاربيني" (بالإيطالية: Jovanni da Pian del Carpine) إلى "جويوك" خان المغول يطلب منه تحالفه مع الصليبيين. إلا أن رد "جويوك" جاء مخيباً لأمال البابا، إذ رد عليه برسالة تطلب منه الخضوع للمغول والحضور إليه مع كل ملوك أوروبا لمبايعته ملكاً على العالم.[١٩] لكن إينوسينت لم يفقد الأمل فقام في مايو من عام ١٢٤٧ بإيفاد "أشلين اللومباردي" (بالإنجليزية: Asclin of Lombardy) إلى القائد المغولي "بايتشو" في تبريز. وبدا بايتشو أكثر استعداداً للتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين، إذ اقترح أن يقوم بمهاجمة بغداد على أن يقوم الصليبيون في ذات الوقت بمهاجمة الشام فيتم تطويق المسلمين، وأوفد رسولين إلى روما بقيا في ضيافة بابا الكاثوليك نحو عام، ثم عادا إلى بياتشو ومعهما شكوى من البابا بأنه لم يلحظ أن "بايتشو" قد أقدم على فعل شيء مثمر يخدم التحالف المأمول.[٢٠]

إبحار سفن الحملة الصليبية السابعة إلى مصر

لويس التاسع ملك فرنسا.

في ٢٤ جمادى الأولى ٦٤٦ هـ، الموافق في ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م، أبحر لويس من مرفأ إيجو-مورت وتبعته سفن أخرى من نفس المرفأ ومن مرسيليا. كان الأسطول الصليبي ضخماً ويتكون من نحو ١٨٠٠ سفينة محملة بنحو ٨٠ ألف مقاتل بعتادهم وسلاحهم وخيولهم.[١][٢١] كان يصحب لويس زوجته "مرجريت دو بروفنس" (بالفرنسية: Marguerite de Provence)، وأخويه "شارل دي أنجو" (بالفرنسية: Charles d'Anjou) و"روبرت دي أرتوا" (بالفرنسية: Robert d'Artois)، ونبلاء من أقاربه ممن شاركوا في حملات صليبية سابقة مثل "هيو دو بورجوندي" (بالفرنسية: Hugh de Burgundy) و"بيتر دو بريتاني" (بالفرنسية: Peter de Brittany) وغيرهما. كما تبعته سفينة على متنها فرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف سليزبوري" (بالإنجليزية: William of Salisbury) و" فير روزاموند"

(بالإنجليزية: Fair Rosamond). وكانت هناك فرقة إسكتلندية مات قائدها "باتريك أوف دونبار" (بالإنجليزية: Patrick of Dunbar) أثناء سفره إلى مرسيليا.[١٦]

أراد الملك لويس التوجه مباشرة إلى مصر لكن مستشاريه وباروناته فضلوا القيام بوقفة تعبوية لتجميع كل السفن والمقاتلين قبل التوجه إلى مصر، فتوقف بجزيرة قبرص،[٢٢] حيث انضم إليه عدد كبير من بارونات سوريا وقوات من فرسان المعبد، المعروفون بالداوية، والاسبتارية التي قدمت من عكا تحت قيادة مقدميها.[٢٣]

أثناء توقف لويس بقبرص قام باستقبال وفد مغولي سلمه رسالة ودية من خان المغول يعرض عليه فيها خدماته للاستيلاء على الأراض المقدسة وطرد المسلمين من بيت المقدس. فأرسل لويس هدية لخان المغول، وكانت عبارة عن خيمة ثمينة على هيئة محراب كنيسة عليها رسم يمثل بشارة الملائكة لمريم العذراء، لترغيبه في اعتناق المسيحية.[٢٢] ولسوء حظ لويس، اعتبر المغول هديته رسالة تعني قبوله الخضوع لهم فطلبوا منه إرسال هدايا لهم في كل عام مما أصابه بصدمة.[٢٤]

توقف الحملة الصليبية في قبرص أدى إلى تسرب أنبائها إلى مصر قبل وصول سفنها إلى المياه المصرية. ويُقال أن فريدرك الثاني، الذي كان في صراع مع بابا الكاثوليك، بعث إلى السلطان أيوب يخبره بإبحار لويس التاسع لغزو مصر،[١٦] مما منح السلطان أيوب فرصة للاستعداد وإقامة التحصينات.[١][٢٥][٢٦]

في مايو عام ١٢٤٩ ركب لويس سفينته الملكية "لو مونتجوي"،[٢٧] وأمر باروناته باتباعه بسفنهم إلى مصر فأبحرت السفن من ميناء ليماسول القبرصي. أثناء التوجه إلى مصر وقعت عاصفة بحرية قوية تسببت رياحها في جنوح نحو ٧٠٠ سفينة من سفن الحملة إلى عكا وسواحل الشام. كان ضمن المقاتلين على متن السفن الجانحة نحو ٢١٠٠ من فرسان لويس التاسع الذين كان مجموعهم نحو ٢٨٠٠ فارس، فتوقف لويس لوقت قصير في جزيرة المورة اليونانية حيث انضم إليه "هيو دو بورجوندي" الذي كان ينتظر هناك، ثم أبحر جنوباً صوب مصر.[٢٨]

احتلال دمياط

أما في مصر فقد كانت أنباء عزم الفرنج [٢٩] على مهاجمة مصر قد وردت، فأنهى السلطان الصالح أيوب حصاره لحمص.[٣٠] وعاد من الشام إلى مصر على محفة بسبب مرضه الشديد، ونزل في شهر محرم من سنة ٦٤٧هـ، الموافق في أبريل عام ١٢٤٩م عند قرية أشموم طناح، على البر الشرقي من الفرع الرئيسي للنيل. وأصدر أوامره بالاستعداد وشحن دمياط بالأسلحة والأقوات والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وكان أميراً في نحو الثمانين، على رأس جيش كبير ليعسكر في البر الغربي لدمياط حتى يواجه الفرنج إذا قدموا.[٢٥][٣١]

طلب البارونات والمستشارون من الملك لويس التمهل حتى وصول السفن الجانحة بالشام، ولكنه رفض طلبهم بحجة أن فعل ذلك سيعطي دفعة للمسلمين، كما أنه لا يوجد مرفأ في الطريق يمكن أن ترسوا فيه السفن مما قد يعرضها للجنوح إلى مناطق بعيدة بفعل الرياح القوية.[٣٢][٣٣]

دخلت سفن الفرنج المياه المصرية ووصلت إلى شاطئ دمياط وأرست بإزاء المسلمين. راع المقاتلون الصليبيون وهم ينظرون من فوق أسطح سفنهم كثرة أجناد المسلمين على الشاطئ، وبريق أسلحتهم، وصهيل خيولهم.[٣٢][٣٤] وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه

الاستسلام،[٢٥][٣٥][٣٦] وكان السلطان الصالح مريضاً مرض الموت وكانت الدولة الأيوبية تحتضر معه. اغرورقت عينا الصالح أيوب بعد أن قُرئ عليه كتاب لويس ورد عليه يحذره من مغبة عدوانه وصلفه، وينبئه بأن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه [٣٧] ولما وصل رد الملك الصالح إلى لويس برفض الاستسلام قرر لويس بدء عملية الإنزال.[٣٨]

في فجر السبت ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هـ، الموافق في ٥ يونيو ١٢٤٩م، بدأت عملية إنزال القوات الصليبية على بر دمياط.[٣٣][٣٤][٣٩] وكانت القوات تضم نحو ٥٠,٠٠٠ مقاتل وفارس.[٤٠][٤١] ضُربت للويس خيمة حمراء كبيرة على الشط،[٣٨] ونشب قتال عنيف بين المسلمين والصليبيين انتهى بتراجع المسلمين.[٣٣] وفي المساء انسحب الأمير فخر الدين يوسف إلى معسكر السلطان في "أشموم طناح"،[٤٢] بعد أن ظن أن السلطان قد فارق الحياة لأنه لم يرد على رسائله التي بعث بها إليه بالحمام الزاجل.[٤٣][٤٤] ترك فخر الدين دمياط خلفه بكل مافيها من سلاح ومؤونة وأقوات، ففزع السكان وفروا هم أيضاً منها وخلفهم العربان الذين كانوا قد وضعوا في المدينة للمشاركة في حمايتها.[٣٣] فعبر الجنود الصليبيون إلى المدينة المهجورة، سيراً على الجسر الذي نست الحامية الأيوبية تدميره قبل أنسحابها، واحتلوا دمياط بدون أن يواجهوا مقاومة، حتى أنهم قد ظنوا في بادئ الأمر أنها مكيدة من المسلمين. استولى الصليبيون على المدينة بكل ما فيها من سلاح وعتاد ومؤونة، وحصنوا أسوارها.[٤٥]

اغتبط الفرنج بالاستيلاء على دمياط بتلك السهولة، لكن لويس فضل التمهل في التقدم نحو الدلتا إلى أن تصل السفن الجانحة في الشام وإلى أن ينتهي موسم فيضان النيل حتى لا يسقط في غلطة الحملة الصليبية الخامسة التي أغرقها فيضان النيل. تحولت دمياط إلى مستعمرة صليبية، وعاصمة لمملكة ما وراء البحار وصار جامعها الكبير كاتدرائية، ونصب أحد القساوسة أسقفاً عليها،[٤٦] وأنشأت الأسواق الأوروبية، وأمسك تجار جنوة وبيزا بزمام التجارة فيها. واستقبل لويس صديقه بالدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية، وحضرت زوجته من عكا للإقامة معه، وقد كانت قد توجهت من قبرص إلى عكا عند إبحاره إلى مصر.[٤٧]

أما في الجانب المصري فقد وقعت أنباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين كالصاعقة على الناس، وانزعج واشتد حنق السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين وقال له: "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟".[٤٨] وأمر بإعدام نحو خمسين من أمراء العربان الذين تهاونوا وغادروا دمياط بغير إذن. وحُمل السلطان المريض في حراقة إلى قصر المنصورة، [٤٩] وقدمت الشواني بالمحاربين والسلاح، وأعلن النفير العام في البلاد فهرول عوام الناس أفواجاً من كافة أنحاء مصر إلى المنصورة لأجل الجهاد ضد الغزاة.[٥٠][٥١] وقامت حرب عصابات ضد الجيش الصليبي المتحصن خلف الأسوار والخنادق، وراح المجاهدون يشنون هجمات على معسكراته ويأسرون مقاتليه وينقلونهم إلى القاهرة.[٥٢] ويروي المؤرخ الصليبي "جوانفيل" الذي رافق الحملة، أن المسلمون كانوا يتسللون أثناء الليل إلي المعسكر الصليبي ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون بروؤسهم.[٥٣] ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدواداري أن الصليبيون كانوا يخافون من العوام المتطوعين أكثر من الجنود.[٥٤]

في غضون ذلك، في ٢٤ أكتوبر، وصل إلى دمياط من فرنسا "ألفونس دى بواتي" (بالفرنسية: Alphonse de Poitiers) الشقيق الثالث للملك لويس ومعه إمدادات وقوات إضافية. بوصول الإمدادات تشجع الصليبيون وقرروا التحرك من دمياط. كان على لويس الاختيار بين السير إلى الإسكندرية كما اقترح "بيتر أوف بريتني" والبارونات أو السير إلى القاهرة كما أصر "روبرت دو ارتوا" شقيق لويس الذي أشار إلى أنه: "إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها". واختار لويس ضرب رأس الأفعى فأمر بالسير إلى القاهرة.[٥٥][٥٦]

المعركة

المسير نحو المنصورة

في ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م، بعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط،[٥٧] خرج الصليبيون من دمياط وساروا على البر بينما شوانيهم في بحر النيل توازيهم، وقاتلوا المسلمين هنا وهناك حتى وصلوا في ٢١ ديسمبر [٥٨] إلى ضفة بحر أشموم، الذي يُعرف اليوم بالبحر الصغير، فأصبحت مياه بحر أشموم هي الحاجز الذي يفصل بينهم وبين معسكر المسلمين على الضفة الأخرى.[٥٩] حصن الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا خنادقهم، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على عسكر المسلمين، ووقفت شوانيهم بإزائهم في بحر النيل، ووقفت شواني المسلمين بإزاء المنصورة، ووقع قتال شديد بين الصليبيين والمسلمين في البر ومياه النيل. حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى الجانب الآخر ولكن المسلمين ظلوا يمطرونهم بالقذائف ويجرفون الأرض في جانبهم كلما شرعوا في إكمال الجسر حتى تخلوا عن الفكرة.[٦٠] وراحت المساجد تحض الناس على الجهاد ضد الغزاة مرددة الآية القرآنية: (انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)،[٦١] فصار الناس يتواردون من أنحاء مصر على منطقة الحرب بأعداد غفيرة.[٦٢]

وفاة السلطان الصالح أيوب

وبينما كان الصليبيون يتقدمون جنوباً داخل الأراضي المصرية اشتد المرض على السلطان الصالح أيوب وفارق الحياة بالمنصورة في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ، الموافق في ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م،[٦٣][٦٤][٦٥] فأخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته، وأدارت البلاد بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتابك العسكر والطواشي جمال الدين محسن رئيس القصر،[٦٦] حتى لا يعلم الصليبيون فيزيد عزمهم ويشتد بأسهم، وحتى لا تتأثر معنويات الجيش والعوام. وأُرسل الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار زعيم المماليك البحرية إلى حصن كيفا لإحضار توران شاه ابن السلطان المتوفى لتسلم تخت السلطنة وقيادة البلاد في حربها ضد الغزاة.[٦٧] إلا أن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجع الصليبيون أكثر وظنوا أن التحالف القيادي القائم بين شجر الدر وهي امرأة والأمير فخر الدين وهو رجل طاعن في السن لن يصمد طويلاً وسوف يتهاوى عاجلاً ومعه مصر.[٥٨]

الهجوم عبر المخاضة

في ٨ فبراير من عام ١٢٥٠م دل أحدهم الصليبيين على مخائض في بحر أشموم [٦٨][٦٩] مكنت فرقة يقودها أخو الملك "روبرت دى أرتوا" سوياً مع فرسان المعبد، وفرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف ساليزبري" (بالإنجليزية: William of Salisbury) من العبور بخيولهم وأسلحتهم إلى الضفة الأخرى ليفاجأ المسلمون بهجوم صليبي كاسح على معسكرهم في "جديلة" [٦٨] على نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة المنصورة. في هذا الهجوم المباغت قتل فخر الدين يوسف وهو خارج من الحمام مدهوشاً بعدما سمع جلبة وصياح في المعسكر. أدى الهجوم إلى تشتت الأجناد وتقهقرهم مذعورين إلى المنصورة.[٧٠] وبعد أن احتل الصليبيون معسكر جديلة تقدموا خلف "روبرت دو أرتوا" نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصري برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لا ريب منتصرين.[٧١]

معركة المنصورة

أمسك المماليك بزمام الأمور بقيادة فارس الدين أقطاي، الذي أصبح القائد العام للجيش المصري،[٧٢] وكان هذا أول ظهور للمماليك كقواد عسكريين داخل مصر. تمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها، ووافقت شجر الدر -الحاكم الفعلي للبلاد- [٧٣] على خطة بيبرس البندقداري باستدراج القوات الصليبية المهاجمة داخل مدينة المنصورة، فأمر بيبرس بفتح باب من أبواب المنصورة وبتأهب المسلمين من الجنود والعوام داخل المدينة مع الالتزام بالسكون التام. وبلعت القوات الصليبية الطعم، فظن فرسانها أن المدينة قد خوت من الجنود والسكان كما حدث من قبل في دمياط، فاندفعوا إلى داخل المدينة بهدف الوصول إلى قصر السلطان، فخرج عليهم بغتة المماليك البحرية والجمدارية وهم يصيحون كالرعد القاصف [٥٤] وأخذوهم بالسيوف من كل جانب [٧٤] ومعهم العربان والعوام والفلاحين يرمونهم بالرماح والمقاليع والحجارة، وقد وضع العوام على رؤوسهم طاسات نحاس بيض عوضاً عن خوذ الأجناد [٧٥] وسد المسلمون طرق العودة بالخشب والمتاريس فصعب على الصليبيين الفرار، وأدركوا أنهم قد سقطوا في كمين محكم داخل أزقة المدينة الضيقة وأنهم متورطون في معركة حياة أو موت، فألقى بعضهم بأنفسهم في النيل وابتلعتهم المياه.

نتائج معركة المنصورة

قُتل عدد كبير من القوات الصليبية المهاجمة.[٧٦] من فرسان المعبد وفرسان الإسباتريه لم ينج سوى ثلاثة مقاتلين، وفنيت الفرقة الإنجليزية تقريباً عن أخرها.[٧٧][٧٨] واضطر أخو الملك لويس "روبرت دي أرتوا" إلى الاختباء في أحد الدور،[٧٩][٨٠][٨١][٨٢] ثم قتل هو و"وليم أوف ساليزبري" قائد الفرقة الإنجليزية.[٨٢]

أثناء المعركة راح الفرنج على الضفة المقابلة لبحر أشموم يكدون ويجدون لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور لمساعدة فرسانهم، ولكن لما وردتهم أنباء سحق الفرسان، عن طريق بيتر أوف بريتني الذي فر إليهم بوجه مشجوج من ضربة سيف، وشاهدوا بقايا فرسانهم مدبرين إلى جهتهم والمسلمين في أعقابهم، راحوا يلقون بأنفسهم في مياه النيل بغية العودة إلى معسكراتهم وكاد لويس ذاته أن يسقط في الماء. يصف المؤرخ "جوانفيل" الذي حضر الواقعة كالتالي: "في تلك المعركة أعداد كبيرة من الناس من ذوي الهيئات المحترمة ولوا مدبرين فوق الجسر الصغير في مشهد مخزي لأبعد الحدود. لقد كانوا يهرولون وهم في حالة من الذعر الشديد، وبدرجة جعلتنا لا نتمكن من إيقافهم على الإطلاق. أستطيع ذكر أسمائهم ولكني لن أفعل ذلك لأنهم صاروا في عداد الأموات".[٨٣] وبذلك أصبح الصليبيون في ذات الموقع الذي باتوا فيه في الليلة السابقة على الضفة الشمالية من بحر أشموم [٨٤][٨٥] حيث أداروا عليهم سوراً وبقوا تحت هجوم مستمر طوال اليوم. وقد اتهم بعض الفرسان لويس التاسع بالجبن والتخاذل.[٨٦] بعد المعركة عقد فارس الدين أقطاي، القائد العام للجيوش المصرية، مجلس حرب لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على شارة تحمل علامة البيت الملكي الفرنسي، كان صاحب الشارة هو شقيق الملك لويس، "روبرت دى أرتوا" الذي لقي مصرعه في المعركة، ولكن أقطاي ظن أنها خاصة بلويس وأن العثور عليها دليل على أنه قد قُتل، فقال: "كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد"، فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفوري على معسكر الصليبيين، فقام المسلمون في الفجر بشن هجوم واسع صمد فيه الفرنج ولكنه ألحق بهم خسائر فادحة. في هذا الهجوم فقد مقدم فرسان المعبد "وليم أوف سوناك" (بالإنجليزية: William of Sonnac) إحدى عينيه، ثم فقد الأخرى بعد بضعة أيام ومات.[٨٧][٨٨] انطلق الحمام من المنصورة بنبأ الانتصار على الصليبيين وحط بالقاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل وفرح الناس وأقيمت الزينات.[٨٩]

وصول توران شاه واكتساح الصليبيين في فارسكور

تحصن الصليبيون داخل معسكرهم ثمانية أسابيع آملين في انهيار القيادة في مصر حتى يتمكنوا من معاودة محاولة التقدم إلى القاهرة. لكن الحلم الصليبي لم يتحقق، وبدلاً من انهيار القيادة وصل السلطان الأيوبي الجديد توران شاه إلى المنصورة في ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٤٨ هـ، الموافق في ٢٨ فبراير عام ١٢٥٠، لقيادة الجيش.[٩٠] بوصول السلطان الجديد تنفست شجرة الدر والأمراء الصعداء وأعلن رسمياً في البلاد عن نبأ وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب.[٩١]

قام المسلمون بنقل المراكب وهي مفككة على ظهور الإبل وبعد تركيبها على الشط أنزلوها في مياه النيل خلف قوات لويس التاسع، وهي حيلة لجأ إليها الملك الكامل جد توران شاه في نفس المكان أثناء الحملة الصليبية الخامسة،[٨٤] وبذلك منعوا وصول الإمدادات والمؤن من البحر المتوسط ودمياط إلى القوات الصليبية التي صارت محاصرة وفي موقف لا تحسد عليه، فلا هي قادرة على الاقتحام جنوباً والتقدم نحو القاهرة ولا هي ممونة من قاعدتها في الشمال.[٩٢] استخدم المسلمون النار الإغريقية في تدمير مراكب الإمدادات الصليبية المتجهة من دمياط إلى قوات لويس المتمركزة جنوب المنصورة، كما تمكنوا من الاستيلاء على ثمانين سفينة صليبية، وفي يوم ١٦ مارس تمكنوا من تدمير قافلة كانت تتكون من اثنين وثلاثين سفينة.[٩٠] لم يمض وقت طويل حتى كانت قوات لويس قد أنهكت من الحصار والهجمات المتواصلة في النهار والليل، وبدأ الجنود الصليبيون يعانون من الجوع والمرض ويفرون إلى جيش المسلمين، بعد أن أصابهم اليأس والإحباط، بل والشك في الفكرة الدينية التي حملتهم على الانضمام إلى حملة لويس التاسع ضد بلاد المسلمين.[٧٧]

على الرغم من هزيمة لويس التاسع وانتهاء حلمه لبلوغ القاهرة بانحساره في مصيدة جنوب المنصورة، بقوات جائعة ومريضة وخائفة، إلا أنه عرض على المسلمين أن يسلمهم دمياط في مقابل تسليمه بيت المقدس وأجزاء من ساحل الشام. وهو عرض كان قد اقترحه السلطان الأيوبي الصالح أيوب على لويس بعد احتلاله دمياط.[٩٠] ورفض المسلمون [٩٣] عرض لويس لإدراكهم أن وضعه العسكري لم يعد يؤهله لوضع شروط أو عقد صفقات. وبذلك أصبح أمام لويس التاسع اختيار واحد ألا وهو الفرار إلى دمياط وإنقاذ نفسه وجنوده.[٩٠]

في ٥ أبريل من سنة ١٢٥٠، في جنح ظلام الليل، بدأت قوات الصليبيين رحلة الهروب إلى دمياط.[٥][٩٤] ومن شدة العجلة والارتباك، نسى الصليبيون أن يدمروا جسراً من الصنوبر كانوا قد أقاموه فوق قناة أشموم.[٩٥] عندما أحس المسلمون بحركة الصليبيين، عبروا فوق الجسر وراحوا يطاردونهم ويبذلون فيهم السيوف من كل جانب حتى وصلوا إلى فارسكور حيث تم تدميرهم بالكامل ووقع الملك لويس وأمراؤه ونبلاؤه في الأسر بدار ابن لقمان في يوم ٦ أبريل من نفس العام.[٥][٩٦]

في تلك الغضون كان الصليبيون يروجون شائعة في أوروبا تزعم أن الملك لويس التاسع هزم سلطان مصر في معركة عظمى تبعها سقوط القاهرة في يده.[٩٧][٩٨] بعدما وصلت أنباء هزيمة لويس التاسع ووقوعه في الأسر ذهل الناس في فرنسا ونشأت حركة هستيرية عرفت باسم حملة الرعاة الصليبية.[٩٩][١٠٠]

النتائج المباشرة لهزيمة لويس التاسع

تحققت نبوءة الصالح أيوب بأن بغي لويس التاسع سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه. استناداً إلى المصادر الإسلامية قُتل في حملة لويس التاسع ما بين ١٠ آلاف و ٣٠ آلف من الجنود الصليبيين.[٥] أسر لويس التاسع

في "منية عبد الله"، المعروفة بميت الخولي عبد الله الآن،[١٠١] بعد أن استسلم مع نبلائه للطواشي جمال الدين محسن الصالحي،[٥] وأودع مغلاً في بيت القاضي إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، تحت حراسة طواشي يدعى صبيح المعظمي.[٥] كما أسر أخواه "شارل دانجو" و"ألفونس دو بويتي" وعدد كبير من أمرائه ونبلائه وقد سجن معظمهم معه في دار ابن لقمان. أما الجنود العاديون الذين أسروا فقد أقيم لهم معتقل خاص خارج المدينة. وأرسلت غفارة [١٠٢] لويس التاسع إلى سوريا مع كتاب توران شاه ببشارة النصر، وكتب في ذلك أحد الشعراء:

فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ويلبس أسلاب الملوك عبيده[103].

سُمح للويس التاسع بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط للمصريين، والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، بالإضافة إلى دفعه فدية قدرها ٤٠٠ ألف دينار تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها بمصر.[١٠٤] فدفع نصف المبلغ بعد أن جمعته زوجته في دمياط، ووعد بدفع الباقي بعد وصوله إلى عكا، وهو مالم يفعله بعد أن تهرب من الدفع فيما بعد.[١٠٥][١٠٦]

في ٣ صفر ٦٤٨هـ، الموافق في ٨ مايو عام ١٢٥٠، بعد احتلال دام أحد عشر شهراً وتسعة أيام، [١٠٧] سلم لويس التاسع دمياط وغادرها إلى عكا مع أخويه و١٢,٠٠٠ أسير كان من ضمنهم أسرى من معارك سابقة.[١٠٨] أما زوجته "مرجريت دو بروفنس" والتي كانت في غضون ذلك قد أنجبت طفلاً في دمياط أسمته "جان ترستان" (بالفرنسية: Jean Tristan) أي "جان الحزن"، فقد غادرت دمياط مع وليدها قبل مغادرة زوجها ببضعة أيام. وكانت مرجريت تعاني من كوابيس مرعبة أثناء نومها، وتتخيل أن غرفتها تغتص بالمسلمين، فكانت دائماً تصرخ في الليل: "أغيثوني.. أغيثوني".[١٠٩] أما "جان ترستان" فقد مات مع لويس التاسع في سنة ١٢٧٠م أثناء الحملة الصليبية الثامنة على تونس، وهي الحملة التي كان من أهدافها تحويل تونس إلى قاعدة صليبية ينطلق منها لويس التاسع لمهاجمة مصر مرة أخرى. مع أن قسمه بعدم العودة إلى مصر كان أحد شروط إطلاق سراحه.[١١٠]

وكتب أحد الشعراء المسلمين [١١١] ضمن أبيات تسخر من نهاية حملة لويس التاسع:[١٠٨]

أتيت مصر تبغى ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ضاق بك عن ناظرك الفسيح

و كل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

ألهمك الله إلى لعل عيسى منكم يستريح

وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

لم يعد لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر البقاء في مدينة عكا بعد أن سمح لأخوته ومعظم نبلائه بالسفر إلى فرنسا، وحملهم رسائل إلى ملوك أوروبا يطلب فيها النجدة والمدد عله يتمكن من إحراز نصر في الشام يمسح به وصمة الفشل والهزيمة التي لحقت به في مصر. لكنه اضطر للعودة إلى فرنسا بعد أربع سنوات بعد أن توفيت والدته "الملكة بلانش" التي كانت تدير شئون الحكم في فرنسا وقت غيابه.[١١٢]

على الرغم من الهزيمة الساحقة التي مني بها لويس وجيشه والأعداد الغفيرة من قتلاه وجرحاه وأسراه، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول إلى "رأس الأفعى" في القاهرة، بل لم يتمكن من الاستيلاء على المنصورة وفر في النهاية بقواته ووقع في الأسر وقيد بالسلاسل مع بارونـاته، ووُضع في السجن تحت حراسة خاصة وليس أميراً كما كانت التقاليد، وكاد أن يُقتل لولا موافقة شجرة الدر والمماليك على إطلاق سراحة مقابل دفع دية، إلا أن بعض المؤرخين الغربيين أشاروا إلى أن لويس انتصر في معركة المنصورة، معتبرين الهجوم الخاطف على معسكر المسلمين في جديلة وصمود لويس عند الجسر أثناء فرار فرسانه انتصاراً وأن هذا الصمود هو معركة المنصورة، هذا رغماً من أن بعض الفرسان الفارين اتهموا لويس بسبب توقفه عند الجسر بالجبن والتخاذل.[٨٦] وأضافوا أن استسلامه في فارسكور كان نتيجة لخيانة جندي صليبي رشاه المسلمون كي يصيح في الجنود على لسان لويس بإلقاء السلاح والاستسلام. وأضافوا أن المسلمين طلبوا منه بعد القبض عليه أن يوافق على تنصيبه سلطاناً على مصر ولكنه رفض في عزة وكبرياء، متحججاً بأنه في حالة تنصيبه سلطاناً سيضطر إلى تخيير رعيته المسلمة بين اعتناق المسيحية أو القتل.[١١٣]

ويعبر وصف المؤرخ الصليبي "ماثيو باريس"، المتوفي عام ١٢٥٨، الذي سجله في كتابه بعد أحداث معركة المنصورة، عن مدى الألم الذي شعر به الصليبيون بعد هزيمتهم: "كل الجيش المسيحي تمزق إرباً في مصر، وا أسفاه، كان يتكون من نبلاء فرنسا، وفرسان الداوية والاسبتارية وتيوتون القديسة ماري وفرسان القديس لازاروس".[١١٤] عززت هزيمة القوات الصليبية في المنصورة اسم تلك المدينة المرتبط بالانتصار والذي يرجع إلى تاريخ أقدم من الحملة الصليبية السابعة.[١١٥]

النتائج التاريخية لهزيمة الصليبيين

واجهت الحملة الصليبية السابعة على مصر نهايتها المأساوية في فارسكور في عام ١٢٥٠ معلنة عن بدء عصر تاريخي جديد لكل القوى الإقليمية التي كانت متواجدة في تلك الفترة. هزيمة الحملة الصليبية السابعة في مصر أثبتت مرة أخرى مكانة مصر كقلعة وترسانة عسكرية للإسلام في تلك الأيام. الحملة الصليبية السابعة كانت آخر حملة صليبية منظمة على مصر. لم يتمكن الصليبيون من تحقيق حلمهم باحتلال بيت المقدس مرة أخرى، وفقد ملوك أوروبا، باستثناء لويس التاسع، اهتمامهم بإطلاق حملة صليبية جديدة.

ولكن مباشرة بعد رحيل لويس التاسع إلى عكا، اغتيل السلطان الأيوبي توران شاه بفارسكور بأيدي ذات المماليك الذين دحروا الصليبيين في المنصورة وفارسكور،[١١٦][١١٧] ليصبحوا منذ ذلك الحين حكاماً لمصر وبعد قليل حكاماً للشام.

بعد هزيمة الصليبيين في سنة ١٢٥٠ توزعت الخريطة السياسية والعسكرية في شرق حوض البحر المتوسط على أربع قوى أساسية: المماليك في مصر، الأيوبيون في الشام، الصليبيون في عكا وساحل الشام، مملكة قليقية الأرمينية، وإمارة أنطاكية الصليبية.

بينما تحول المماليك في مصر والأيوبيون في الشام إلى عدوين لدودين، تحالف صليبيو عكا وأرمن قليقية وصليبيو أنطاكية. من مقر إقامته في عكا حاول لويس مناورة مماليك مصر، مستغلاً الصراع الناشب بينهم وبين بقايا الدولة الأيوبية في الشام. بمجرد وصول لويس إلى عكا وفد إليه مبعوث من الناصر يوسف [١١٨] ملك دمشق طالباً إقامة تحالف أيوبي-صليبي ضد مماليك مصر. ولكن لويس رفض بسبب خوفه على مصير أسراه المحتجزين في مصر، ولمعرفته أن مصر قوة لا يُستهان بها وفي ذاكرته هزيمته في مصر وهزيمة التحالف الصليبي مع أيوبي الشام في سنة ١٢٤٤م والذي أدى إلى سقوط بيت المقدس بالكامل في أيدي المسلمين.[١١٩] ولكن بعدما أرسل الناصر يوسف رسالة إلى لويس توحي باستعداده لتسليمه القدس في مقابل مساعدته ضد السلطان عز الدين أيبك في مصر اهتم لويس بالأمر وأرسل إلى أيبك موفوده "جون أوف فالنسينس" (بالإنجليزية: John of Valenciennes) يحذره من أنه سيضطر إلى التحالف مع دمشق ضده في حالة عدم الإفراج عن الأسرى الصليبيين المحتجزين في مصر. لم تؤد تلك المشاريع التحالفية إلى شيء ذي أهمية - باستثناء موافقة أيبك على الإفراج عن الأسرى والتنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس في مقابل منع الناصر محمد من الاقتراب من حدود مصر،[١٢٠][١٢١] ولكنها كانت تنذر بسقوط بني أيوب في الهاوية بعد كل إخفاقاتهم وصراعاتهم الداخلية، وفقدانهم كل مبررات بقائهم في حكم المنطقة العربية الإسلامية، مما أدى في النهاية إلى بزوغ نجم دولة المماليك كقوة عسكرية مخلصة، تذود عن الإسلام وتجاهد الغزاة ولا تهادنهم ولا تتنازل لهم عن أراضي المسلمين ومقدساتهم،[١٢٢] وكذلك كان حال الأيوبيين وقت بزوغ نجمهم في عهد صلاح الدين الأيوبي.[١٢٣]

في تلك الغضون كانت الجيوش المغولية آخذة في التوغل في الجانب الشرقي من أوروبا والعالم الإسلامي. الصليبيون وحلفهم كانوا يأملون في التحالف مع المغول ضد العالم الإسلامي. في عام ١٢٤٧ خضعت مملكة قليقية بإرادتها للمغول وفي عام ١٢٥٤، بعد أربع سنوات من فشل الحملة الصليبية السابعة، قام "هتوم" ملك أرمينية الصغرى بزيارة "قارقروم" عاصمة المغول. في عام ١٢٥٣ أرسل لويس التاسع من عكا الكاهن الفرنسيسكاني "وليم أوف روبروك" (بالإنجليزية: William of Rubruck) إلى عاصمة المغول للتشاور. وكان وليم هذا يصحب لويس في مصر أثناء حملته عليها. فقد كان من ضمن أهداف الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع إنشاء حلف صليبي-مغولي ضد العالم الإسلامي.[١٢٤]

في عام ١٢٥٨ دمر المغول بغداد التي كانت مركزاً هاماً من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي وأسقطوا الخلافة العباسية ثم احتلوا سوريا، وقبل أن يتوجهوا إلى مصر ذهب إليهم المماليك وهزموهم عند عين جالوت وأوقفوا زحفهم. وقتل القائد كتبغا الذي اشترك في تدمير بغداد، وقاد جيش المغول في عين جالوت، وكان مسيحياً يتبع كنيسة المشرق، وقد صحبه في عين جالوت كل من أمير أنطاكية الصليبية، وملك أرمينية الصغرى. وكان الناصر يوسف في آخر إخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظي، وسيراً على نهج المغيث عمر ملك الكرك الأيوبي،[١٢٥][١٢٦] ولكنهم قتلوه بعد هزيمتهم.[١٢٧] وقام مماليك مصر بتحرير الشام من المغول، وزالت دولة الأيوبيين تماماً. وأصبح المماليك، الذين تشكلت دولتهم في رحم الأخطار، حكاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق وجنوب البحر المتوسط لعقود طويلة من الزمان.[١٢٨] ومع ذلك، على الرغم من هزيمة الصليبيين والمغول، إلا أن الحروب أنهكت المسلمين اقتصادياً وبشريا، وأدى الاجتياح المغولي إلى اضمحلال العالم الإسلامي اضمحلالاً شديداً، ذلك أن المغول قتلوا أعداداً غفيرة من علماء المسلمين ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، فانمحى بذلك جزء كبير من التراث الثقافي والعلمي للمسلمين.[١٢٩]

شجر الدر سلطانة مصر

شجر الدرّ (أو **شجرة الدّر**) [١][٢][٣][٤][٥]، الملقبة بعصمة الدين أم خليل، خوارزمية الأصل، وقيل أنها أرمينية [٦]. كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بمكانة عالية حتى أعتقها وتزوجها وأنجبت منه ابنها خليل الذي توفي في ٢ من صفر ٦٤٨ هـ (مايو ١٢٥٠م). تولت عرش مصر لمدة ثمانين يوماً بمبايعة من المماليك وأعيان الدولة بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، ثم تنازلت عن العرش لزوجها المعز أيبك التركماني سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م). لعبت دوراً تاريخياً هاماً أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر وخلال معركة المنصورة.

أصولها

شجرة الدر كانت جارية من أصل تركي أو خوارزمي وقد تكون ارمنية. اشتراها الصالح أيوب قبل أن يكون سلطاناً،ورافقته في فترة اعتقاله في الكرك سنة ١٢٣٩ مع مملوك له اسمه ركن الدين بيبرس.وأنجبت ولد اسمه خليل.لُقِبَ بالملك المنصور.وبعد ما خرج الصالح من السجن ذهبت معه إلى مصر وتزوجوا هناك.وبعد أن أصبح سلطان مصر سنة (١٢٤٠ م) بقت تنوب عنه في الحكم عندما يكون خارج مصر. في أبريل ١٢٤٩ م كان الصالح أيوب في الشام يحارب الملوك الايوبيين الذين ينافسوه على الحكم وصلته أخبار ان ملك فرنسا لويس التاسع(Louis IX)-الذي أصبح قديس بعد وفاته.في قبرص وفي طريقه لمصر على رأس حملة صليبية كبيرة حتى يغزوها.بالقرب من دمياط على البر الشرقي للفرع الرئيسي للنيل.حتى يجهز الدفاعات لو هجم الصليبيين.وفعلاً في يونيو ١٢٤٩ م نزل فرسان وعساكر الحملة الصليبية السابعة من المراكب على بر دمياط ونصبوا خيمة حمراء للملك لويس.وانسحبت العربات التي كان قد وضعها الملك الصالح في دمياط للدفاع عنها فأحتلها الصليبيون بسهولة وهي خالية من سكانها الذين تركوها عندما رأو هروب العربات.فحزن الملك الصالح وعدم عدداً من راكبي العربات بسبب جبنهم وخروجهم عن

اوامره.وانتقل الصالح لمكان آمن في المنصورة.وفي ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ م توفى الملك الصالح بعد أن حكم مصر ١٠ سنين وفي لحضة حرجة جداً من تاريخها. شجرة الدر استدعت قائد الجيش المصري "الأمير فخر الدين يوسف" ورئيس القصر السلطاني "الطواشي جمال الدين محسن".وقالت لهم ان الملك الصالح توفى وأن مصر الآن في موقف صعب من غير حاكم وهناك غزو خارجي متجمع في دمياط.فأتفق الثلاثة ان يخفوا الخبر حتى لا تضعف معنويات العساكر والناس ويتشجع الصليبيون.وفي السر ومن غير أن يعلم أحد نقلت شجرة الدر جثمان الملك الصالح في مركب على القاهرة ووضعته في قلعة جزيرة الروضة.ومع ان الصالح بن أيوب لم يوص قبل أن يموت بمن يمسك الحكم من بعده.شجرة الدر بعثت زعيم المماليك البحرية " فارس الدين أقطاى الجمدار " على حصن كيفا حتى يستدعي " توران شاه " ابن الصالح أيوب حتى يحكم مصر بدل أبوه المتوفي. قبل أن يتوفى الصالح أيوب كان اعطى اوراق على بياض لشجرة الدر حتى تستخدمها لو مات.فبقت شجرة الدر والأمير فخر الدين يصدرون الأوامر السلطانية على هذه الاوراق.وقالوا ان السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد.وكانوا يدخلون الطعام للغرفة التي كان من المفروض ان يكون نائم فيها حتى لا يشك أحد.واصدروا امر سلطاني بتجديد العهد للسلطان الصالح أيوب وتنصيب ابنه توران شاه ولي عهد للسلطنة المصرية وحلفوا الامراء والعساكر.

انتصار مصر على الحملة الصليبية السابعة

أخبار وفاة الصالح أيوب وصلت للصليبيين في دمياط بطريقة ما.وفي نفس الوقت وصلت إلى دمياط امدادات مع " الفونس دو بويتي " (Alphonse de Poitiers) أخ الملك لويس. فتشجع الصليبيين وقرروا الخروج من دمياط والتوجه للقاهرة.وقدرت قوات من الفرسان الصليبيين بقيادة روبرت دارتوا (Robert d'Artois) أخو الملك لويس من أجتياز قناة اشموم عن طريق مخاضة عرفوها عن طريق أحد قواد العربات.فهجموا فجأة على المعسكر المصري في جديلة على بعد حوالي ٣ كليومتر من المنصورة.فقتل الأمير فخر الدين يوسف وهو خارج من الحمام على صوت الضجة والصريخ فهربت العساكر التي بغتها الهجوم الغير متوقع وذهبوا إلى المنصورة. الأمير ركن الدين بيبرس عرض على شجرة الدر، الحاكمة الفعلية لمصر في هذا الوقت.خطة وضعها يدخل فيها الفرسان الصليبيين المندفعين نحو المنصورة في مصيده.فوافقت شجرة الدر على الخطة.وجمع بيبرس وفارس الدين اقطاي الذي أصبح القائد العام للجيوش المصرية. نظم صفوف العساكر المنسحبين من جديلة داخل المنصورة وطلب منهم ومن السكان التزام السكون التام بحيث ان الصليبيين المهاجمين يضنون ان المدينة خالية مثل ما حصل في دمياط.وفعلاً وقع الفرسان الصليبيين في الفخ واندفعوا إلى داخل المنصورة واتجهوا نحو القصر السلطاني حتى يحتلوه. فخرجت لهم المماليك البحرية والمماليك الجمدارية فجأة وهاجموهم من كل ناحية بالسيوف والسهام وخرج سكان المنصورة والمتطوعين وهم يرتدون خوذ من النحاس الأبيض بدل خوذات العساكر وضربوهم بكل ما اوتيوا من قوة. المماليك حاصروا القوات الصليبية المهاجمة واغلقوا الشوارع والحواري وبقى الصليبيين غير قادرين على الهروب ولم يبقى امامهم سوى الموت على الأرض أو أن يرموا نفسهم في نهر النيل ويغرقوا فيه.تخبئ " روبرت دارتوا " أخ لويس داخل بيت لكن الناس وجدوه وقتلوه وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة في حواري المنصورة.وقتل منهم عدد كبير لدرجة ان لم ينجو من فرسان المعبد الا واحد أو اثنان. هذا كان أول ظهور للماليك البحرية داخل مصر كمقاتلين يدافعون عن مصر. وفي تلك اللحضة تاريخ مصر والمنطقة التي حولها كان يتشكل عن طريق شجرة الدر ورجال دخلوا تاريخ مصر والعالم مثل الظاهر بيبرس عز الدين أيبك وقلاوون الألفي وغيرهم.

التخلص من توران شاه

توران شاه اغتيل سنة ١٢٥٠.

بعد النصر تنكر السلطان الجديد لشجر الدر، وبدلاً من أن يحفظ لها جميلها بعث يتهددها ويطالبها بمال أبيه، فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شؤون الحرب وتدبير أمور الدولة، فلما اشتد عليها، ورابها خوف منه ذهبت إلى القدس خوفًا من غدر السلطان وانتقامه.

ولم يكتف توران شاه بذلك بل أمتد حنقه وغيضه ليشمل أمراء المماليك، أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم وإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة، وبدأ يفكر في التخلص منهم غير أنهم كانوا أسبق منه في الحركة وأسرع منه في الإعداد فتخلصوا منه بالقتل على يد أقطاي.

المبايعة

وجد المماليك أنفسهم في وضع جديد فهم اليوم أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ومقاليد الأمور في أيديهم، ولم يعودوا أداة في يد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف وعليهم أن يختاروا سلطانًا للبلاد، وبدلاً من أن يختاروا واحدًا منهم لتولي شؤون البلاد اختاروا شجرة الدر لتولي هذا المنصب الرفيع.

أخذت البيعة للسلطانة الجديدة ونقش اسمها على السِّكة بالعبارة الآتية "المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين".

جدير بالذكر أن شجر الدر لم تكن أول امرأة تحكم في العالم الإسلامي، فقد سبق أن تولت رضية الدين سلطنة دلهي، واستمر حكمها أربع سنوات (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ) الموافق (١٢٣٦ - ١٢٤٠ م). وحكمت أروى بنت أحمد الصليحي من سلالة بنو صليح اليمن من تاريخ (٤٩٢ - ٥٣٢ هـ) الموافق (١٠٩٨ - ١١٣٨ م).

تصفية الوجود الصليبي

وما أن جلست شجر الدر على العرش حتى قبضت على زمام الأمور وأحكمت إدارة شؤون البلاد، وكان أول عمل أهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد وإدارة مفاوضات معه أنتهت بالاتفاق مع الملك لويس التاسع (القدّيس لويس، كما يسمّيه قومه)الذي كان أسيرًا بالمنصورة على تسليم دمياط وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى مقابل فدية كبيرة قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها قبل رحيله والباقي بعد وصوله إلى عكا مع تعهد منه بعدم العودة إلى سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى.

المعارضة

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر في الحكم طويلاً على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة وتقربها إلى العامة وإغداقها الأموال والإقطاعات على كبار الأمراء، فلقيت معارضة شديدة داخل البلاد وخارجها، وخرج المصريون في مظاهرات غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد، وعارض العلماء ولاية المرأة الحكم وقاد المعارضة العز بن عبد السلام لمخالفة جلوسها على العرش للشرع.

وفي الوقت نفسه ثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه وأغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجر الدرّ على سدة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تقرّ صنيع المماليك، فكتب الخليفة المستعصم إليهم: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً".

تنازلها عن العرش

ولم تجد شجر الدرّ إزاء هذه المعارضة الشديدة بدًا من التنازل لة عن العرش للأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر الذي تزوجته، وتلقب باسم الملك المعز، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوماً.

وإذا كانت شجرّ الدر قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسمياً، وانزوت في بيت زوجها، فإنها مارسته بمشاركة زوجها مسئولية الحكم، فخضع هذا الأخير لسيطرتها، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أمّ ولده علي وحرّمت عليه زيارتها هي وابنها، وبلغ من سيطرتها على أمور السلطان أن قال المؤرخ الكبير "ابن تغري بردي": "إنها كانت مستولية على أيبك في جميع أحواله، ليس له معها كلام".

قتل فارس الدين أقطاي

ساعدت شجرة الدر عز الدين أيبك علي التخلص من فارس الدين أقطاي الذي سبب لهم مشاكل عديدة في حكم البلاد والذي كان يعد من أشرس القادة المسلمين في عصره، كما كانت لكلمته صدى واضح في تحركات الجند بكل مكان.

وفاتها

غير أن أيبك انقلب عليها بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج، وتمرس بإدارة شوؤن البلاد، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة "بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل. فغضبت شجر الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك فأرسلت إليه تسترضيه وتتلطف معه وتطلب عفوه فانخدع لحيلتها واستجاب لدعوتها وذهب إلى القلعة حيث لقي حتفه هناك في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م).

أشاعت شجر الدرّ أن المعزّ لدين الله أيبك قد مات فجأة بالليل ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، فقاموا بضربها بالقباقيب علي رأسها وألقوا بها من فوق سور القلعة، ولم تدفن إلا بعد عدة أيام.[٧]

وهكذا انتهت حياتها على هذا النحو بعد أن كانت ملء الأسماع والأبصار، وقد أثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك، فيقول "ابن تغري بردي" عنها: "وكانت خيّرة دَيِّنة، رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البِرّ، معروفة بها...".

قتلت "شجرة الدر" ملكة مصر في القاهرة في يوم ٣ مايو (ايار) عام ١٢٥٧ الموافق ٢٣ ربيع الأول لعام ٦٥٥ من الهجرة بعد أن دام حكمها ثمانين يوما ثم تنازلت عن العرش لوزيرها "عز الدين" الذي تلقب بالملك المعز [٨].

أتخذت سيرة شجرة الدر موضوعا لفيلم سينمائي كان من أوائل الأفلام السينمائية في مصر، وقد اضطلعت فيه بدور شجرة الدر الممثلة السيدة آسيا، وعرض في كثير من الأقطار العربية في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي [٩].

.

١. ^ بيبرس الدوادار، ٣
٢. ^ محيي الدين بن عبد الظاهر، ٥٢
٣. ^ ابن أيبك، ٣٧٤/٧
٤. ^ العيني، عصر سلاطين المماليك، ٢٨
٥. ^ بعض المؤرخين يعتبرون شجر الدر أولى سلاطين المماليك. في تلك الحالة يكون عز الدين أيبك ثاني سلاطين المماليك وليس أولهم (قاسم، ٢٢)- (الشيال، ١٠٨/٢)
٦. ^ المقريزي، السلوك، ٤٥٩/١
٧. ^ شجر الدر (أو عصمة الدين أم خليل) مصر الخالدة
٨. ^ جريدة الشرق الأوسط العدد٥٢٧٠ الأثنين ١٩٩٣/٥/٣
٩. ^ جريدة الشرق الأوسط. العدد ٥٢٧٠ الصادر في ٣ مايو ١٩٩٣

المماليك

المماليك هم سلالة من الجنود حكمت مصر والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن وبالتحديد من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ م.تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى.قبل أن يستقروا بمصر و التي أسسوا بها دولتين متعاقبتين كانت عاصمتها هي القاهرة: الأولى دولة المماليك البحرية، ومن أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، ثم تلتها مباشرة دولة المماليك البرجية بانقلاب عسكري قام به السلطان الشركسي برقوق الذي تصدى فيما بعد لتيمورلنك واستعاد ما احتله التتار في بلاد الشام والعراق ومنها بغداد. فبدأت دولة المماليك البرجية الذين عرف في عهدهم أقصى اتساع لدولة المماليك في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي. وكان من أبرز سلاطينهم برقوق وابنه فرج وإينال والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص وقانصوه الغوري وطومان باي.

كان هؤلاء المماليك عبيدا استقدمهم الأيوبيون، زاد نفوذهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة سنة ١٢٥٠ م. كان خطة هؤلاء القادة تقوم استقدام المماليك من بلدان غير إسلامية، وكانوا في الأغلب أطفالاً يتم تربيتهم وفق قواعد صارمة في ثكنات عسكرية معزولة عن العالم الخارجي، حتى يتم ضمان ولاؤهم التام للحاكم. بفضل هذا النظام تمتعت دولة المماليك بنوع من الاستقرار كان نادرا آنذاك.

قام المماليك في أول عهد دولتهم بصد الغزو المغولي على بلاد الشام ومصر وكانت قمة التصدي في موقعة عين جالوت. بعدها وفي عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧ م) والسلاطين من بعده، ركز المماليك جهودهم على الإمارات الصليبية في الشام. قضوا سنة ١٢٩٠ م على آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام (عكا).

أصبحت القاهرة مركزا رئيسا للتبادل التجاري بين الشرق والغرب، وازدهرت التجارة ومعها اقتصاد الدولة. قام السلطان برقوق (١٣٨٢-١٣٩٩ م) بقيادة حملات ناجحة ضد تيمورلنك وأعاد تنظيم الدولة من جديد. حاول السلطان برسباي (١٤٢٢-١٤٣٨ م) أن يسيطر على المعاملات التجارية في مملكته، كان للعملية تأثير سيء على حركة هذه النشاطات. قام برسباي بعدها بشن حملات بحرية ناجحة نحو قبرص.

منذ العام ١٤٥٠ م بدأت دولة المماليك تفقد سيطرتها على النشاطات التجارية. أخذت الحالة الاقتصادية للدولة تتدهور. ثم زاد الأمر سوءا التقدم الذي أحرزته الدول الأخرى على حسابهم في مجال تصنيع الآلات الحربية.

سنة ١٥١٧ م يتمكن السلطان العثماني سليم الأول من القضاء على دولتهم. ضمت مصر، الشام والحجاز إلى أراض الدولة العثمانية.

تمتع المماليك خلال دولتهم بشرعية دينية في العالم الإسلامي وهذا لسببين، تمكلهم لأراضي الحجاز والحرمين، ثم استضافتهم للخلفاء العباسيين في القاهرة منذ ١٢٦٠ م.

تاريخ المماليك

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة المماليك التي حكمت مصر والشام والحجاز إلى عصرين: عصر دولة المماليك البحرية (٦٤٨- ٧٨٤هـ = ١٢٥٠- ١٣٨١م) نسبة إلى بحر النيل؛ حيث اختار السلطان الصالح "نجم الدين أيوب" جزيرة الروضة في وسط النيل لتكون مقرا لمماليكه، أما العصر الآخر؛ فأُطلق عليه "عصر دولة المماليك الجراكسة" أو المماليك البرجية (٧٨٤- ٩٢٢هـ = ١٣٨٢- ١٥١٧م) نسبة إلى بلاد الشركس التي جُلبوا منها إلى مصر، أو نسبة إلى برج قلعة القاهرة، حيث كانوا يقيمون في ثكنات حوله.

وقد اتسمت الفترة الثانية بأن بلغت دولة المماليك أقصى اتساع لها في القرن التاسع الهجري، فأضافت إلى رقعتها جزيرة قبرص، وكانت تمثل خطرا داهما على نفوذها، وحاولت أن تضم "رودس" حتى تقضي على الحروب الصليبية تماما، بعد أن انتقل نشاطها من الشام إلى البحر المتوسط، لكنها لم تفلح في ضم رودس، كما بسطت نفوذها على أعالي الفرات، وأطراف آسيا الصغرى، وهو ما جعلها تتبوأ مكانة رفيعة في العالم الإسلامي.

أصل المماليك

كانت تسمية المماليك تشير إلى العبيد البيض الذين كانوا فرسانا وجنودا محاربين يؤسرون في الحروب أو أطفالا صغارا يخطفون في غارات لصوصية أو كسبايا في حروب يتم عرضهم على مندوبي الدول والحكومات في أماكن خاصة حيث يتم إفتداؤهم بمبالغ مالية تدفع للمسؤلين عنهم ، ويتم جلبهم إلى الدولة المعنية وهي هنا الدولة الأيوبية ومن قبلها الدولة العباسية ليتم تعليمهم وتدريبهم في مدارس عسكرية خاصة ليتخرجوا منها قادة وفرسانا وجنودا مؤهلين يرفدون الجيش ويمدوه بدماء وخبرات وقدرات جديدة تزيد في قوة الجيش ومنعة الدولة، وقد استولوا على الحكم في مصر في نهاية حكم الدولة الأيوبية بمصر وضعف وعدم أهلية ملوكها وسلاطينها. قد كانت فكرة الاستعانة بالمماليك في الشرق الأدنى منذ أيام العباسيين.[٢] وأول من إستخدمهم كان الخليفة المأمون. ولكن استقدم الخليفة العباسي المعتصم بالله جنود تركمان ووضعهم في الجيش كي يعزز مكانته بعد ما فقد الثقة في العرب والفرس التي قامت عليهم الدولة العباسية، ولقد شجع ذلك الخلفاء والحكام الآخرين في جلب المماليك. واستخدم حكام مصر من الطولونيين والأخشيديين [٣] والفاطميين والأيوبيين المماليك. أحمد بن طولون (٨٣٥-٨٨٤م) كان يشترى مماليك الديلم، ولقد كانوا من جنوب بحر قزوين، ووصل عددهم إلي ٢٤ ألف تركى وألف أسود و ٧ آلاف مرتزق حر.جلب الأسرى من القفقاس وآسيا الصغرى إلى مصر من قبل السلطان الصالح أيوب، لذا يكون أصل المماليك من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة، إفتداهم مندوبي السلاطين ووكلاءهم وتم جلبهم إلى الدولة بعد ذلك ليستعينوا بهم في تقوية الجيش وزيادة قدراته وأعداده. و كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تسانده، ودعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته. وممن عمل على جلبهم الأيوبيون. كما كان المماليك يبايعون الملوك والأمراء، ثم يدربون تدريبا عسكريا راقيا ويتلقون علوما شرعية وعلوما عامة ويربّون على الطاعة والإخلاص والولاء.

تربية المماليك

يشرح لنا المقريزي رحمه الله كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشترى وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلي من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويُهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب"..[٤]

مماليك الدولة الإخشيدية والفاطمية

عندما قامت الدولة الإخشيدية، محمد بن طغج الإخشيدي أتي بتركمان من الديلم، وكان عددهم كبير ٤٠٠ ألف ومنهم حرسه الشخصي ويقدر عددهم بثمانية آلاف مملوك.

لقد احتاج الفاطميون إلي جيش كبير يساعدهم علي الحروب ويعينهم علي التوسع في الشرق. كان جيشهم الأول من المغاربة وعرب المغرب وإفريقية وذلك عند دخولهم مصر وزودوا عليه عسكر من الترك والديلم والسودانيين والبربر. توسع السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في شراء المماليك واستعان بهم ضد منافسيه الأيوبيين في الشام واسكنهم معه في جزيرة الروضة الواقعة في نيل القاهرة واسماهم " المماليك البحرية " نسبة إلى سكنتهم وسط بحر النيل أو لقدومهم من وراء البحر

وفي تلك الأثناء كان المماليك رجال معتادين علي خوض الحروب وحمل السيف والرمح، ومعظمهم التحق بذلك النظام العسكري الصارم كوسيلة من وسائل طلب الرزق تماما كالسعي للوظائف العسكرية أو المدنية في العصر الحاضر والتي تستهلك معظم أو كل عمر الإنسان في خدمة مهام وظيفته ومسؤوليه وموظفيه ، مقابل تقاضيه أجوره ورواتبه الشهرية . ولكن في ظل الدولة الأيوبية عامة وفي عهد الصالح أيوب خاصة تغير ذلك النظام وأصبح ذو طابع خاص.

مماليك الصالح نجم الدين أيوب

عندما أصبحت السلطة في يد الأيوبيين أخدوا يشترون المماليك بكميات عظيمة وذلك لخوض حروبهم مع الصليبيين تارة ومع أنفسهم تارة أخرى ؛ وذلك لعدم رغبة الأيوبيون في محاربة المسلمين بعضهم البعض فكانوا يشترون المماليك لذلك الهدف في بادئ الأمر. ولكن عندما تسلطن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ في شراء الغلمان الصغار وذلك ليدربهم علي امتشاق الحسام والرمح وليجعل في نفوسهم الطاعة له فكان لهم بمثابة الأب وبنى لهم معسكرات وبراج في جزيرة الروضة في القاهرة وأسكنهم اياها وكذلك جعل منهم فرقة لقلعة الجبل. وعمل لهم نظام تدريب خاص ومعيشة خاصة، فأصبح له ولائهم وحبهم وإخلاصهم.

والذي أوعز إلي السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بهذا الأمر هو تمرد عسكره الأيبوبيين عليه في المعارك، وكذلك كثرة نفقات العسكر الخوارزمية المرتزقة الذين غالوا في نفقاتهم وأجورهم.

أخذ السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء قلعة الروضة ووضع بها المماليك الخاصة التي سميت باسم المماليك البحرية.وانتسب المماليك البحرية بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فكانوا يلقبون باسم "المماليك الصالحيه النجميه".

تربية المماليك

مماليك في القرن السادس عشر

كان الصالح أيوب -ومن تبعه من الأمراء- لا يتعاملون مع المماليك كرقيق.. بل على العكس من ذلك تماماً.. فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم.. ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته.. وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو المادة.. حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يفتديهم لقب "الأستاذ" وليس لقب "السيد"..

ويشرح لنا المقريزي كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشترى وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: **"إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلي من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويُهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب"..**

لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشأون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جدًا، وتتكون لديهم خلفية واسعة جداً عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جداً جداً عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي.. ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي رحمهم الله جميعاً، وظهر وترعرع أيضاً في عهدهم ودولتهم أعداد هائلة من العلماء يصعب حصرهم..

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جداً في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب..

ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله - بلا شك - كان يثبت أقدام المماليك تماماً في أرض القتال..

وكل ما سبق يشير إلى دور من أعظم أدوار المربين والآباء والدعاة، وهو الاهتمام الدقيق بالنشء الصغير، فهو عادة ما يكون سهل التشكيل، ليس في عقله أفكار منحرفة، ولا عقائد فاسدة، كما أنه يتمتع بالحمية والقوة والنشاط، وكل ذلك يؤهله لتأدية الواجبات الصعبة والمهام الضخمة على أفضل ما يكون الأداء..

وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي افتداهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحياناً كان السلطان الصالح أيوب - - يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيراً ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حباً كبيراً حقيقياً، ويدينون له بالولاء التام..

وهكذا دائماً.. إذا كان القائد يخالط شعبه، ويشعر بهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم لألمهم، فإنهم -ولاشك- يحبونه ويعظمونه، ولا شك أيضاً أنهم يثقون به، وإذا أمرهم بجهاد استجابوا سريعاً، وإذا كلفهم أمراً تسابقوا لتنفيذه، وبذلوا أرواحهم لتحقيقه.. أما إذا كان القائد في حالة انفصال عن شعبه، وكان يعيش حياته المترفة بعيداً عن رعيته.. يتمتع بكل ملذات الحياة وهم في كدحهم يعانون ويتألمون، فإنهم لا يشعرون ناحيته بأي انتماء.. بل إنهم قد يفقدون الانتماء إلى أوطانهم نفسها.. ويصبح الإصلاح والبناء في هذه الحالة ضرباً من المستحيل..

وكان المملوك إذا أظهر نبوغاً عسكرياً ودينياً فإنه يترقى في المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح هو قائداً لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أعطي بعض الإقطاعات في الدولة فيمتلكها، فتدر عليه أرباحاً وفيرة، وقد يُعطى إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة أمير، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق في الجيش وهكذا..

وكان المماليك في الاسم ينتسبون عادة إلى السيد الذي افتداهم بماله.. فالمماليك الذين افتداهم الملك الصالح يعرفون بالصالحية، والذين افتداهم الملك الكامل يعرفون بالكاملية وهكذا..

وقد زاد عدد المماليك الصالحية، وقوي نفوذهم وشأنهم في عهد الملك الصالح أيوب، حتى بنى لنفسه قصراً على النيل، وبنى للمماليك قلعة إلى جواره تماماً.. وكان القصر والقلعة في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، ولذلك اشتهرت تسمية المماليك الصالحية "بالمماليك البحرية" (لأنهم يسكنون بجوار البحر).

وهكذا وطد الملك الصالح أيوب ملكه بالاستعانة بالمماليك الذين وصلوا إلى أرقى المناصب في جيشه وفي دولته، وتولى قيادة الجيش في عهده أحد المماليك البارزين اسمه "فارس الدين أقطاي"، وكان الذي يليه في الدرجة هو ركن الدين بيبرس، فهما بذلك من المماليك البحرية..

نظرة عامة

فكرة الاستعانة بالمماليك في الشرق الأدنى بدت من أيام العباسيين. وأول واحد إستخدمهم كان الخليفة المأمون. ثم جاء الخليفة المعتصم فأتى بالتركمان واستخدمهم في الجيش لكي يعزز مكانته بعد ما فقد الثقة في العرب وفي الفرس الذين قامت عليهم الدولة العباسية، وكانت تلك بداية جديده شجعت الخلفاء والحكام من بعده لفعل ذات الشيء. فولاة مصر من الطولونيين الأخشيديين والفاطميين استخدموا المماليك، منهم أحمد بن طولون (٨٣٥-٨٨٤م) كان يشترى مماليك الديلم، وهم من جنوب بحر قزوين، وقد وصل عددهم ٢٤ ألف تركى وألف أسود و ٧ آلاف مرتزق حر.

وكذلك فعل الأيوبيون فجلبوا المماليك إليهم، ثم ازداد نفوذهم في فترة إزدادت فيها إخفاقات الأيوبيين ونشبت صراعات فيما بينهم، حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة سنة ١٢٥٠ م. كانت خطة الأيوبيون تقوم على استقدام المماليك من بلدان غير إسلامية، وكانوا في الأغلب أطفالاً يتم تربيتهم وفق قواعد صارمة في ثكنات عسكرية معزولة عن العالم الخارجي، حتى يتم ضمان ولائهم.

مماليك الدولة الإخشيدية والفاطمية

عندما قامت الدولة الإخشيدية، أتى محمد بن طغج الإخشيدي بأتراك الديلم، ووصل عددهم إلى ٤٠٠ ألف ومنهم حراسه الشخصيين الذين قاربوا ٨ آلاف مملوك. أما الفاطميين فقد كانوا محتاجين لجيش كبير ليستقوا به أنفسهم في مصر ويعينهم على التوسع شرقا. فقد كان جيشهم في الأول كان من المغاربة لكن عند دخولهم مصر أضافوا إليه عساكر ترك وديلم وسودانيين وبربر.

مماليك الصالح نجم الدين أيوب

كان بعض المماليك فرسانا وجنودا معتادون على الحروب وفنون القتال، و قدانضم أكثرهم من تلقاءنفسه إلى النظام ، بالإضافة لأسرى الحروب والأطفال المختطفين من قبل العصابات أو المسبيين نتيجة الحروب. وعندما جاء السلطان الصالح نجم الدين أيوب في أواخر العصر الأيوبي غير النظام وجعل له شكل آخر. فقد كان الأيوبيون منذ زمن صلاح الدين الأيوبى يجلبوا عسكر مماليك متدربين على الحروب، حتى زمن الصالح أيوب في قمة صراعاته مع أيوبيي الشام تخلى عنه مماليكه وعسكره من الخوارزمية الذين كانوا يعملون لديه بالأجرة. فاضطر إلى التركيز على جلب لأطفال الصغار ليربيهم عنده ويدربهم ويصبح ولائهم خالصا إليه بدلا من الجنود والفرسان الكبار السن ، الذين يمكن أن تتبدل ولاءاتهم حسب الظروف. وبدأ بشراء مماليك صغار السن وبنى لهم معسكرا وأبراج في جزيرة الروضة واسكنهم هناك فسموا بالمماليك

البحرية. وجعل لهم نظام معيشة وتدريب معين، وقد كان شديد العطف عليهم حتى أحبوه وأخلصوا له وقدمهم على الكرد والعرب. وقد انتسبت تلك المماليك إليه وتلقبوا بلقبه، فكان يقال عنهم "المماليك الصالحية النجمية"، ويضاف لأسمائهم لقب "الصالحى النجمى"، مثل عز الدين أيبك الصالحى النجمى، والظاهر بيبرس الصالحى النجمى، وقلاوون الصالحى النجمى، وغيرهم.

دولة المماليك

تحرير طرابلس عام ١٢٨٩: السفن المملوكية تهاجم القلعة الصليبية.

تعتبر فترة حكم المماليك من الفترات التاريخية المجهولة عند كثير من المسلمين، وذلك قد يكون راجعاً لعدة عوامل.. لعل من أهمها أن الأمة الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد تفرقت تفرقاً كبيراً، حتى كثرت الإمارات والدويلات، وصغر حجمها إلى الدرجة التي كانت فيها بعض الإمارات لا تتعدى مدينة واحدة فقط .. وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية.

من العوامل التي أدت إلى جهل المسلمين بهذه الفترة أيضاً: كثرة الولاة والسلاطين في دولة المماليك ذاتها، ويكفي أن نشير إلى أن دولة المماليك الأولى - والمعروفة باسم دولة المماليك البحرية (وسنأتي إلى تعريف ذلك الاسم لاحقاً)- حكمت حوالي ١٤٤ سنة، وفي خلال هذه الفترة حكم ٢٩ سلطانًا.. وذلك يعني أن متوسط حكم السلطان لم يكن يتعدى خمس سنوات.. وإن كان بعضهم قد حكم فترات طويلة، فإن الكثير منهم قد حكم عاماً أو عامين فقط! و كانت القوة والسلاح غالبا هي وسيلة التغيير الرئيسية للسلاطين في دولة المماليك البحرية هذه، حيث سارت البلاد على القاعدة التي وضعها أحد سلاطين الدولة الأيوبية (الذين سبقوا المماليك مباشرة) وهو السلطان "العادل الأيوبي"، والتي تقول: "الحكم لمن غلب".

ولعل من أهم أسباب عدم معرفة كثيرين بدولة المماليك هو تزوير التاريخ الإسلامي، والذي تولى كبره المسلمين المفتونين بهم والمتتلمذين عليهم، والذين شوهوا تاريخ المماليك لإنجازاتهم المشرّفة والهامة؛ والتي كان منها: وقوفهم سداً منيعاً لصد هجمات التتار والصليبيون. حيث كان للمماليك جهاد طويل على مدى تاريخهم ضد هاتين القوتين ، وهكذا ظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام والخلافة الإسلامية في الأرض قرابة ثلاثة قرون، إلى أن تسلمت الخلافة العثمانية راية المسلمين.

تأسيس الدولة المملوكية

عند وفاة الملك الصالح أيوب في المنصورة، وكانت الحرب قائمة ضد الفرنج الصليبيون[٥] ويقودهم لويس التاسع ملك فرنسا عند غزوهم دمياط وكانوا متجهين إلى القاهرة، فجلب المماليك إبنه توران شاه من حصن كيفا كي يقود الحرب ويستلم الحكم، وبعد انتهاء معركة المنصورة وأسر لويس التاسع سنة ١٢٥٠، أساء السلطان الجديد التصرف مع المماليك فاغتالوه عند فارسكور بعد ذلك تسلطنت شجر الدر أرملة الصالح أيوب على عرش مصر بمساندة وتأييد المماليك البحرية وبذلك فقد الأيوبيون سيطرتهم على مصر.

لم يرض كلا من الأيوبيين في الشام في دمشق والخليفة العباسى المستعصم بالله في بغداد بانتزاع عرش الأيوبيين في مصر وتنصيب شجر الدر ورفضا الاعتراف بسلطانها فقام الأمراء الأيوبيون بتسليم الكرك للملك المغيث عمر ودمشق للملك الناصر صلاح الدين يوسف الذي قبض على عدة من أمراء مصر في دمشق فرد المماليك بتجديد حلفهم لشجر الدر ونصبوا عز الدين أيبك أتابكا وقبضوا على الأمراء الميالون

للناصر يوسف في القاهرة.[٦] وبعث المستعصم إلى الأمراء في مصر كتابا يقول: "ان كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالا " [٧].

عدم اعتراف كلا من الخليفة العباسى[٨] وكذلك الأيوبيين في دمشق بسلطنة شجر الدر قد أربك المماليك في مصر وأقلقهم فراحوا يفكرون في وسائل توفيقية ترضى الأيوبيين والخليفة العباسي وتمنحهم شرعية لحكم البلاد فقرر المماليك تزويج شجر الدر من أيبك ثم تتنازل له عن العرش فيرضى الخليفة العباسي بجلوس رجل على تخت السلطنة ثم البحث عن رمز أيوبي يشارك أيبك الحكم اسميا فيهدأ خاطر الأيوبيين ويرضوا عن الوضع الجديد.

تزوجت شجر الدر من أيبك وتنازلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوما [٩] بإرادة صلبة وحذق متناهي في ظروف عسكرية وسياسية غاية في التعقيد والخطورة بسبب غزو العدو الصليبي للأراضي المصرية وموت زوجها سلطان البلاد الصالح أيوب بينما الحرب ضد الصليبيين دائرة على الأرض الواقعة بين دمياط والمنصورة. نصب أيبك سلطانا وأتخذ لقب الملك المعز. وفي محاولة لإرضاء الأيوبيين والخليفة العباسي قام المماليك باحضار طفلا أيوبيا في السادسة من عمره، وقيل في نحو العاشرة من عمره [١٠]، وسلطنوه باسم "الملك الأشرف مظفر الدين موسى"[١١] وأعلن أيبك أنه ليس سوى نائبا للخليفة العباسي وأن مصر لا تزال تابعا للخلافة العباسية كما كانت من قبل [٧][١٢].

السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن انس بن عبد الله الشركسي، وُلد في القفقاس عام ١٣٤٠ م (٧٤٠ هـ) وقدم للقاهرة وعمره ٢٠ عاما ليلتحق بالجيش المصري حيث أتقن فنون الحرب والفروسية، وترقّى في المناصب العسكرية ورُتب الإمارة حيث أصبح أمير طبلخانه، ثم أمير آخور ثم أتابكا عام ٧٧٩ هـ.

عمل على جمع شمل الأمراء الشراكسة وتعزيز مواقعهم فلما نشِب النزاع بينه وبين الأمير بركة هزمه وقبض عليه وحبسه. عُيّن مُشاركا في تدبير أمور الدولة (أي وصيا على العرش) بعد وفاة السلطان المنصور علاء الدين علي بن شعبان وتولية ابنه الطفل الصالح حاجي سلطانا عام ١٣٨١ م.

استجاب لإلحاح الأمراء ورغبتهم في تنصيبه سلطانا فعليا عليهم بدلا من السلطان الاسمي الصغير فوافق على ذلك وبويع سلطانا على مصر في ١٩ رمضان ٧٨٤ هـ (١٦ نوفمبر ١٣٨٢ م) ولُقّب
فكان بذلك مؤسس دولة السلطنة الشركسية في مصر (البُرجيّن أو المماليك البرجية) بمصر والتي استمرت حتى عام١٥١٧ م.

جرت عدة محاولات لعزله، واستطاع أعداؤه في عام ٧٩١ هـ (١٣٩١ م) هزيمته، ونفيه وسجنه في قلعة الكرك في الأردن، لكنه استطاع بمساعدة أصدقائه تحرير نفسه والهرب من سجنه وهزيمة مناوئيه والعودة إلى عرش السلطنة ثانية في عام ٧٩٢ هـ (١٣٩٢ م).

نجح في عقد عدة معاهدات مع العثمانيين والقفجاق وسيواس ضد الخطر المغولي الزاحف.

توفي يوم الجمعة ١٥شوال ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) وعمره ٦٠ عاما، وقد بكاه الناس لعدله ورفقه برعيته. وكان من مآثره، إبطال الضرائب على الثمار والفواكه، وبناء مدرسة وخانقاه ومدفن الظاهر برقوق وجسر الشريعة على نهر الأردن. كانت الحرب علي اشدها في عصره بين تيمور لنك (المغولي) وبايزيد (العثماني) وكان يسعي كلا الطرفين لارضائه وان يكسبه في صفه . كان شجاعا ذكيا عارفا بالفروسية ماهرا بلعب الرمح، يحب الفقراء ويتواضع لهم، قيل عنه انه كان أعظم ملوك الشراكسة بلا منازع.

- **الناصر فرج بن برقوق** (١٣٩٩ - ١٤٠٥) ، وهو الملك الناصر زين الدين أبو "السعادات" ، سلطان مملوكي، تولى عرش مصر بعد وفاة والده وعمره ١٣ عاما وتكررت معه مأساة أبيه حيث تنحى عن العرش ثم عاد إليه و سادت الفتن و الاضطرابات في عهده وحدث قحط عام في البلاد مصحوبا بالوباء مما أدى إلى وفاة ثلث السكان وفي النهاية ثار ضده أمراء سوريا بزعامة الأمير شيخ الذي هزم السلطان في بعلبك واستولى على القاهرة وانتهى امر السلطان فرج بالقتل وتولى مكانه الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسي كحل مؤقت اتفق عليه أمراء المماليك وذلك في ٨١٥ هجرية.
- **تاريخ**
- الناصر فرج بن برقوق هو السلطان السادس والعشرين ، والجركسي الثالث ، بين سلاطين المماليك. وكانت أمه من الأتراك وتدعى "خوند" شيرين.
- وقد ولد قبيل عزل والده وسجنه في الكرك ؛ ولهذا اعتبر مصدر نحس وسمي بلفاك.
- ولكن السلطان أعيد للحكم فيما بعد ، فسماه فرج. وعين سلطانا يوم وفاة والده في عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩م).
- كان للسلطان مجموعة من الأثار الهامة
- **صفاته**
- يجمع المؤرخون على وصف السلطان فرج بن برقوق بأنه كان حاكما متحجر القلب قاسي. وكان ينزع إلى الاستيلاء على ممتلكات رعاياه من الأراضي ، كما كان مولعا بالشراب وغيره من الموبقات ، وقد حكم السلطان فرج لمدة ستة أعوام وخمسة أشهر ويوم واحد لفترة أولى حتى سنة ٨٠٨ هجرية/ ١٤٠٥ م. وعندما علم بأن مماليكه يتآمرون على خلعه ، غادر القلعة واختفى في شوارع المدينة؛ فاستبدل أمراؤه به أخاه المنصور عبد العزيز بن برقوق-الذي سبق وأن عينه والده وليا للعهد- الذي حكم لمدة ستة أشهر. ثم حكم فرج بن برقوق لفترة ثانية من ٨٠٨ هجرية حتى ٨١٥ هجرية.

المنصور عبد العزيز بن برقوق

بينما تولى السلطنة في مصر سنة٨٠٨هـ/١٤٠٥م سلطان مملوكي، قام السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق ٨٠٨هـ/١٤٠٥م عند هروب أخيه السلطان الناصر فرج بن برقوق باخذ بيعه الأمراء السلطان عبد العزيز ولكن بسبب أحساس المماليك بتعاظم نفوذ بيبرس الاتابك حيث كان الوصي علي السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق مما عجل بعوده فرج المختفى إلى الظهور مرة أخرى بعد حوالى شهرين فعادت إليه السلطنة فتم عزل السلطان المنصور عبد العزيز بن برقوق

هو المستعين بالله أبو الفضل العباس بن المتوكل العباسي، خليفة عباسى من خلفاء القاهرة الصوريون والوحيد من خلفاء القاهرة العباسيين (١٤٠٦-١٤١٤) الذي تسنى له يحكم حكماً فعلياً لا اسمياً كبقية الخلفاء،

وإن كانت فترة حكمه لم تتجاوز بضعة أشهر. أمه أم ولد اسمها: باي خاتون. بويع بالخلافة بعهد من أبيه في رجب، وتوفي سنة ٨١٥ هـ.

تولى خلافة المسلمين في عصر المماليك البرجية، بويع له بالخلافة عام ١٤٠٦م وخلع عام ١٤١٢م. حكم فعليا بين عامي ١٤١٢ - ١٤١٢ م. بعد مقتل السلطان الناصر فرج بن برقوق لم يستقر الأمراء فيما بينهم على من يخلفه على عرش السلطنة ولكنهم اتفقوا مبدئيا وكاجراء شكلى على اختيار الخليفة العباسي المستعين بالله أبو الفضل سلطانا على مصر بالإضافة إلى منصب الخلافة إلى أن تستقر الأمور وعزل بعد فترة قصيرة. توفي عام ١٤٣٠

السلطان الملك **المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي،**

قدِم السلطان شيخ المحمودي الشركسي من الشام إلى القاهرة وعمره ١٢ عاما وكان ذكيا جميل الصورة فعيّنه السلطان برقوق في الحرس السلطاني ثم جعله اميرا للحج ثم نائبا للشام. تولّى الخليفة العباسي المستعين بالله الحكم بعد مقتل السلطان فرج ابن برقوق لمدة ستة أشهر ثم عين الأمير شيخ المحمودي نائبا للملك في ٨ ربيع أول ٨١٥ هجري ثم عيّنه شريكا في المُلك ولقّبه بالملك المؤيد ثم استطاع الملك المؤيد الانفراد بالسلطنة في أوائل عام ٨١٥ هجري (١٤١٢ م)، وأبعد الخليفة العباسي المستعين إلى الإسكندرية وعين أخاه داوود خليفة مكانه في عام ٨١٨ هجري.

- - أخمد فتنة الأمير نوروز في دمشق بجيش قاده بنفسه مرتين وفتك بعدد كبير من خصومه ومناوئيه وقضي علي جميع الشيعة ونفي المتبقين لكي لا يحدثوا فتنة طائفية.
- - زحف في حملة عسكرية قوية على سوريا وآسيا الصغرى في ربيع ٨١٧ هجري (١٨١٤ م) فاستعاد طرطوس وما جاورها من العثمانيين ثم زار القدس.
- - أرسل ابنه إبراهيم عام ٨٢٢ هجري على رأس حملة عسكرية لاسترجاع ما احتله التركمان في شمال الشام فوفّق إبراهيم في حملته وتوغّل في فتوحاته حتى مدينة قيسارية وقونية وعاد يسوق أمامه مئات الاسرى ولكنه توفي بعد فترة قصيرة من عودته الظافرة تلك.
- - مرض السلطان الملك المؤيد عام ٨٢٤ هجري وتوفي في ٩ محرم ٨٢٤ هجري (١٤٢١ م) بعد حكم دام ثمانية سنوات وخمسة أشهر.
- - ترك عدة آثار معمارية من أشهرها وأكبرها مسجد المؤيّد قرب باب زويلة وهو من آيات الفن الهندسي البديع ذو النقوش الرائعة، ثم البيمارستان المؤيدي قرب القلعة وغيرها من الآثار.
- - كان السلطان الملك المؤيّد شيخ ملكا شُجاعا مُهابا مِقداما عارفا بالحروب جوادا مُحِبا لأهل العلم مُبجِّلا للشرع مُذعنا له وكان موسيقارا بارعا وخطيبا، بسيط الملبس والمعيشة يختلط بالشعب كانه منهم.

وكان الموید ملك قوي فسيطر علي ارض الشام والعراق وارض الحجاز واجزاء من اليمن واجزاء من ليبيا والسودان وكان خليفة المسلمين ولكن كان متواضعا جدا وكان يعيش حياة بسيطة

المظفر أحمد بن الشيخ هو سلطان من المماليك البرجية حكم مصر في سنة ١٤٢١.

لملك المظفر سيف الدين قطز واسمه الحقيقي هو **محمود بن ممدود بن خوارزم شاه** ولقب بسيف الدين (توفي 24 أكتوبر (1260 السلطان المسلم المصري ذو الأصل المملوكي، تولى الملك سنة 657 هـ .يعتبر أبرز ملوك المماليك على الرغم أن فترة حكمة لم تدم سوى عاما واحدا؛ لأنه نجح في إعادة تعبئة وتجميع الجيش الإسلامي الذي استطاع أن ينقذ التراث البشري بإيقاف زحف المغول الذي كاد أن يقضى على الدولة الاسلامية .وهزمهم الجيش الإسلامي هزيمة منكرة في معركة عين جالوت، ولاحق فلولهم حتى حرر الشام.

أصله ونشأته

كان سيف الدين قطز في الاصل هو محمود بن ممدود وجهان خاتون بنت خوارزم شاه ملك بلاد ما وراء النهر (أوزبكستان الآن) وكان أبوه قائداً لجيوش المملكة الخوارزمية وكانت هناك مناوشات وحروب بين التتار وخوارزم شاه إلى ان مات جده وأصبح خاله جلال الدين هو الملك وظل في حرب دائرة بينه وبين التتار إلى ان تشتت جنده وكاد ان يهزمه الجيش التترى وفقد ابنته جهاد وابن اخته محمود وهم كل ما تبقى من عائلته وبيعا جهاد ومحمود في سوق العبيد تحت أسماء جديدة جلنار (جهاد(وقطز (محمود) كان سيف الدين قطز عبدًا لرجل يسمى "ابن الزعيم "بدمشق ثم بِيع من يدٍ إلى يد حتى انتهى إلى" عز الدين أيبك "من أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر. وتدرج في المناصب حتى صار قائدًا لجند أيبك، ثم قائدًا للجيوش عندما تولى "عز الدين أيبك" السلطنة مع شجرة الدر.

ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن "سيف الدين قطز": ".. لما كان في رِقِّ موسي بن غانم المقدسي بدمشق، ضربه سيده وسبَّه بأبيه وجده، فبكى ولم يأكل شيءًا سائر يومه، فأمر ابن الزعيم الفرّاش أن يترضاه ويطعمه، فروى الفرّاش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لطمة؟ فقال قطز: إنما بكائي من سَبِّه لأبي وجدي وهما خير منه؛ فقلت: من أبوك؟ واحد كافر؟!.. فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكت وترضيته" كما يروي انه قال للعز بن عبد السلام أنه رأى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وقد بشَّره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار فهناه واكد له مارای، وهذا يعني أن الرجل كان يعتبر نفسه صاحب مهمة، وأنه من الصلاح بحيث رأى رسول الله واصطفاه الله بذلك كما أكرمه بالشهادة وادخر شهرته وجزاءه العظيم له في الآخرة لذلك فهو مغمور في الدنيا، وأن له دورًا في صناعة التاريخ، وتغيير الواقع الأسيف الذي يحيط به من كل جانب. وكان وصوله لحكم مصر من حسن حظها وحظ العالمين العربى والإسلامي.

تذكر المصادر التاريخية ومنها رواية وا إسلاماه لعلي أحمد باكثير عدة روايات عن أصل قطز فمنهم من يقول إن اسمه الحقيقي هو محمود بن ممدود الخوارزمي ابن أخت السلطان جلال الدين منكبرتي آخر السلاطين الخوارزميين.

واسم قطز أسماه له التتار حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم له.. ومعنى قطز بلغتهم المغولية "الكلب الشرس".وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم. قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق.

وقد وُصف قطز بأنه كان شاباً أشقر، كث اللحية، بطلاً شجاعاً عفاً عن المحارم، مترفعاً عن الصغائر مواظباً على الصلاة والصيام وتلاوة الأذكار، تزوج من بني قومه ولم يخلّف ولداً ذكراً بل ترك ابنتين لم يسمع عنهما الناس شيئاً بعده.

وصايته على الحكم

قام الملك عز الدين أيبك بتعيين قطز نائبا للسلطنة ،وبعد أن قتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر، وقتلت من بعده زوجته شجر الدرعلى يد جواري الزوجة الأولى لأيبك، تولى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر ١٥ سنة فقط.

وأحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي، وكانت أكثر الاضطرابات تأتي من قبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك، وتزعم أحد هؤلاء المماليك البحرية ـ واسمه"سنجر الحلبي" ـ الثورة، وكان يرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل عز الدين أيبك، فاضطر قطز إلى القبض عليه وحبسه.. كذلك قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام، وذلك ليلحقوا بزعمائهم الذين فروا قبل ذلك إلى هناك أيام الملك المعزّ، ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء، ومنهم" مغيث الدين عمر "أمير الكرك) بالأردن حالياً) الذي تقدم بجيشه لغزو مصر.. ووصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، وخرج له قطز فصدّه عن دخول مصر، وذلك في ذي القعدة من سنة 655 هـ، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صدّه قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة 656 هـ..

كان قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه يدير الأمور فعلياً في مصر ،ولكن الذي كان يجلس على كرسي الحكم سلطان طفل، فرأى قطز أن هذا يضعف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم، ويقوي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلاً.فقد كان السلطان الطفل مهتماً بمناقرة الديوك، ومناطحة الكباش، وتربية الحمام، وركوب الحمير في القلعة، ومعاشرة الأراذل والسوقة، تاركاً لأمه ومن وراءها تسيير أمور الدولة في تلك الأوقات العصيبة، وقد استمر هذا الوضع الشاذ قرابة ثلاث سنوات، على الرغم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيد المغول، وكان من أشد المتأثرين بذلك والمدركين لهذه الأخطار الأمير قطز، الذي كان يحزّ في نفسه ما كان يراه من رعونة الملك، وتحكم النساء في مقدرات البلاد، واستبداد الأمراء، وإيثارهم بمصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد والعباد.

هنا اتخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، واعتلاء قطز بنفسه عرش مصر.حدث هذا الأمر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة 657 هـ، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام.. ومنذ أن صعد قطز إلى كرسي الحكم وهو يعدّ العدّة للقاء التتار.

توليه الحكم

عندما تولى قطز الحكم كان الوضع السياسي الداخلي متأزماً للغاية، فقد جلس على كرسي حكم في مصر خلال عشرة أعوام تقريبا ستة حكام وهم : الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولده توران شاه ,شجر الدر، الملك المعز عز الدين أيبك، السلطان نور الدين علي بن أيبك,و سيف الدين قطز .كما كان هناك الكثير من المماليك الطامعين في الحكم، ويقومون بالتنازع عليه

كما كان هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي.

فعمل قطز على أصلاح الوضع في مصر خلال أعداده للقاء التتار.

الإعداد للقاء التتار

استقرار الوضع الداخلي

، وهو وقف زحف التتار ومواجهتهم، فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح:

"إني ما قصدت (أي ما قصدت من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم."

فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك. كما قام قطز بتعيين أمراء من المماليك البحرية، رغم أنه نفسه من المماليك المعزية التي كانت على خلاف مع المماليك البحرية، فقام بإقرار فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي مكانه كقائد للجيش، حيث وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية عالية.

التصالح مع المماليك البحرية

كان هناك خلاف كبير بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، عندما قتل سيف الدين قطز بالتدبير مع السلطان المعز ومن ورائه زوجته، قتل فارس الدين أقطاي اتابك الدولة (وزير الحرب) ووالي الإسكندرية ،و زعيم المماليك البحرية سنة 652 هـ،الامر الذي جعل الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري يفر الي الشام مقتنعا بانه كان الهدف التالي لمؤامرة شجر الدر مع زوجها السلطان المعز ونائبه قطز ثم بدأ الخلاف يتفاقم تدريجياً إلى أن وصل إلى الذروة بعد مقتل الملك المعزعز الدين أيبك بواسطة شجر الدر التي دفعتها الغيرة الزوجية لذلك عندما علمت بان السلطان إصطفي له جارية من الحريم ثم قتل قطز لشجر الدر في ١٦ نيسان أبريل ١٢٥٧ م، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم القائد ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر مثلما فعل بيبرس مع ملك دمشق الناصر يوسف وملك الكرك والشوبك المغيث عمر، فلما اعتلى قطز عرش مصر قبل الصلح مع بيبرس الذي أرسل الرسل لقطز كي يتحدا للتصدي لجيوش المغول التي كانت قد دخلت دمشق آسرة الناصر يوسف ملكها.

استقبل قطز المماليك الفارين استقبالاً لائقاً، كما استقدم ركن الدين بيبرس، فلما قدم بيبرس إلى مصر، عظّم قطز من شأنه جداً، وأنزله دار الوزارة، وأقطعه" قليوب "وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدَّمين، بل وجعله على مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت.

التوحد مع الممالك المحيطة بمصر

كانت العلاقات العامة مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جداً، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، فيخلوا بينه وبين التتار دون أن يتعاونوا مع التتار ضده. فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبي في نية قطز فيستطيع قطز أن يمده بالقوات للمساعدة في قتال التتار كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب

لنجدته في الشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض ذلك فسقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين .بعد فرار الناصر الأيوبي انضم إلى قطز جيش الناصر، فازدادت بذلك قوة الجيش المصري.

راسل قطز بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير" المنصور "صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر.

أما المغيث عمر صاحب الكرك، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي فقد فضلا الحلف مع المغول والخيانة.

وأما الأخير وهو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار ليساعدهم في محاربة المسلمين.

حل الأزمة الاقتصادية

يحتاج إلى فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جداً، ولابدّ من وجود سند شرعي يبيح ذلك.

فاستفتى قطز الشيخ العز بن عبد السلام فأفتى قائلاً:

""إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا مالكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا" .

قبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش كله.

معركة عين جالوت

عند وصول رسل التتار

بينما كان قطز يعد الجيش والشعب للقاء التتار وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز جاء فيها:

"بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلّطنا على خلقه..الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس" المماليك.."صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها..أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غيظه..فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر..فاتعظوا بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم..قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ..فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى..فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد..فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب.. فأي أرض تأويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان..فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)..وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة..وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام

المقدرة..فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم عينا من سبيل..فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا رد الجواب..قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها.. فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أزتكم رماحنا أزاً..وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية..فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم"

جمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الأستسلام للتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلا أن قال :" أنا ألقى التتار بنفسي.. يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين (عن القتال)"، فتحمس القواد والأمراء لرؤيتهم قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً ويبقى هو.

ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول:

"يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن"

فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وقام قطز بقطع أعناق الرسل الاربع وعشرين الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وعلّق رءوسهم في الريدانية في القاهرة وابقي علي الخامس والعشرين ليحمل الأجساد لهولاكو. وأُرسل الرسل في الديار المصرية تنادى بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله وكان العز بن عبد السلام ينادى في الناس بنفسه فهب نفر كثير ليكونوا قلب وميسرة جيش المسلمين اما القوات النظامية من المماليك فكونت الميمنة وأختبأت بقيتها خلف التلال لتحسم المعركة.

في أرض المعركة

كانت الحرب ضارية.. أخرج التتار فيها كل إمكانياتهم، وظهر تفوق الميمنة التترية التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشهداء يسقطون، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش المسلم.

كان قطز يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف بكامله، ويوجه فِرَق الجيش إلى سد الثغرات، ويخطط لكل كبيرة وصغيرة، وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بآخر الفرق النظاميه من خلف التلال، ولكن الضغط التتري استمر.

فما كان من قطز إلا أن نزل ساحة القتال بنفسه؛ وذلك لتثبيت الجنود ورفع روحهم المعنوية، ألقى بخوذته على الأرض تعبيرًا عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة:"واإسلاماه."

وقاتل قطز مع الجيش المسلم قتالاً شديدًا، حتى صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز فقُتل الفرسُ من ساعته وقال له (في سبيل الله يا رفيقى العزيز)، فترجل قطز على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له. ورآه أحد الأمراء المماليك وهو يقاتل ماشيًا، فجاء إليه مسرعًا، وتنازل له عن فرسه، إلا أن قطز امتنع، وقال: "ما كنت لأحرم المسلمين نفعك!!"وظل يقاتل ماشياً إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له:" لمَ لمْ تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك".

فقال قطز: "أما أنا كنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً من الملوك (مثل عمر وعثمان وعليم) فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضع الإسلام"

مقتله

يروي ابن خلدون في كتاب " تاريخ ابن خلدون "قصة مقتل الملك المظفر سيف الدين قطز:

"كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريباً بهم. ولما سار إلى التتار ذهل كل منهم عن شأنه. وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبلبان الرشيدي وبكتون الجوكنداري وبندوغز التركي. فلما انهزم التتر في الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي. فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم. فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدم إليه أنز شفيعاً في بعض أصحابه. فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم. ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وتبادروا إلى المخيم. وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك وسأل من تولى قتله منكم فقالوا بيبرسفبايع له واتبعه أهل المعسكر ولقبوه ب**القاهر**. وبعثوا أيدمر الحلي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك. ووصل القاهر منتصف ذي القعدةمن السنة فجلس على كرسيه ولكنه غير لقبه إلى الظاهر خوفا من شؤم لقب القاهر واستخلف الناس على طبقاتهم وكتب إلى الأقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الأمراء"...

حمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود[1].

وفي رواية أخرى:

عندما انتهى قطز من حرب التتار وهزيمتهم وتحرير الشام قفل راجعا إلى مصر ولما بلغ بلدة "القصير" من أرض الشرقية بمصر بقي بها مع بعض خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضربت للسلطان خيمته، وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه في النصر، وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء، وأشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه، فوجد منهم عونًا ومؤازرة، فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، فابتعد عن حرسه ووجد ورجاله، فتعقبه المتآمرون حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان امرأة من سبى المغول فأجابه إلى ما طلب، ثم تقدم بيبرس ليقبل يد السلطان شاكرًا فضله، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء، ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة، في حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه، وانتهت بذلك حياة بطل عين جالوت.

و تواترت الانباء في مصر عن مقتل قطز وأشاع المتآمرون انه قد قتل متأثرا بجراح اصيب بها أثناء المعركة...فخرج العامة ينتظرون الموكب بترقب فلما تبين لهم خلوه من قائدهم المحبوب قطز وتأكد لهم مقتله ساد الهم والكرب ووحزن الناس عليه حزنًا شديدًا وأنفض جمعهم سريعا دون احتفال.

ويقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة:

"فلما انقضت الوقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس إلى حمص ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق

وكان وعده بنيابة حلب فأعطاها قطز لصاحب الموصل فحقد عليه بيبرس في الباطن واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية.

والذين اتفقوا معه: بلبان الرشيدي وبهادر المعزي وبكتوت الجوكندار المعزي وبيدغان الركني وبلبان الهاروني وأنص الأصبهاني واتفقوا الجميع مع بيبرس على قتل الملك المظفر قطز وساروا معه نحو الديار المصرية إلى أن وصل الملك المظفر قطز إلى القصير وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة ورحل العسكر طالبًا الصالحية وضرب دهليز السلطان بها.

واتفق عند القصير أن ثارت أرنب فساق المظفر قطز وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه فلما أبعدوا ولم يبق مع المظفر غيرهم تقدم إليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده في إنسان فأجابه المظفر فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل أنص عليه وقد أشغل بيبرس يده وضربه أنص بالسيف وحمل الباقون عليه ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب إلى أن مات ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني فنزلوا ودخلوه والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا فقال فارس الدين الأتابك: من قتله منكم فقال بيبرس: أنا فقال: يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للحلف وكان القاضي برهان الدين قد وصل إلى العسكر متلقيا للملك المظفر قطز فاستدعي وحلف العسكر للملك الظاهر بيبرس وتم أمره في السلطنة وأطاعته العساكر ثم ركب وساق في جماعة من أصحابه حتى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه."

وذكر المؤرخون أسبابًا متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون: إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق، فأضمر ذلك في نفسه. ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبّت أقدامه في السلطة كان سببًا في إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، وأيًا ما كانت الأسباب فإن السلطان لقي حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقُتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي عنه في تاريخه بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني وكان بطلًا شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير وله اليد البيضاء في جهاد التتار فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه.

وقال قطب الدين اليونيني في تاريخه الذي ذيله على مرآة الزمان بعد ما ساق توجهه إلى دمشق وإصلاح أمرها إلى أن قال: وقتل الملك المظفر قطز مظلومًا بالقرب من القصير وهي المنزلة التي بقرب الصالحية وبقي ملقى بالعراء فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير وكان قبره يقصد للزيارة دائمًا.قال: واجتزت به في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة وترحمت عليه وزرته. وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله.فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه ونقله إلى غير ذلك المكان وعفي أثره ولم يعفى خبره، قال: ولم يخلف ولدًا ذكرًا وكان قتله يوم السبت سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.قلت: فعلى هذا تكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يومًا واحدًا فإنه تسلطن في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وستمائة وقتل فيما نقله الشيخ قطب الدين في يوم السبت سادس عشر ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة انتهى.

ويقول ابن كثير في "البداية والنهاية: "

"لما عاد قطز إلى مصر تملأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابي والصالحية ودفن بالقصر، وكان قبره يزار.فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس، وكان لا يعرف بعد ذلك قتل يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة".

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد أبو السعادات ابن الملك الظاهر ططر) اتوفى فى القاهره، .(1429تاسع سلاطين الدوله المملوكيه البرجيه) الشركسيه). ابن السلطان الظاهر ططر .قعد على عرشمصر سنة ١٤٢١ بوصيه من ابوه و هو عنده حداشر سنه لغاية ما اتعزل سنة ١٤٢٢ بعد ما قعد على العرش تلت تشهر وأيام.

قبل الظاهر ططر مايتوفى كان وصى بإن ابنه " محمد " يخلفه فلما اتوفى سلطن الأمرا " محمد " بلقب الملك الصالح " فى ٣٠ نوفمبر ١٤٢١. الامير برسباى اتعين " نظام الملك " و دى وظيفه جايز كان معناها " نايب السلطنه " و بقى مدبر المملكه و الحاكم الحقيقى ، و استمر الوضع على كده لغاية ما برسباى عزل الملك الصالح.

بيحكى ابن إياس إن " تانى بك ميق " اللى عينه الظاهر ططر نايب فى الشام راح لبرسباى و كلمه فى موضوع عزل الملك الصالح و ان برسباى يتسلطن مكانه فعجب الموضوع برسباى و وافق الأمرا فإستدعى الخليفه العباسى فى القاهره و القضاه و خلعوا الصالح محمد من السلطنه و اتنصب برسباى مكانه. برسباى مانفاش الصالح على اسكندريه زى ما كانت العاده لكن بعته يعيش فى دور الحريم فى قلعة الجبل فعاش هناك لغاية ما عيى بالطاعون و اتوفى سنة ١٤٢٩.

قعد الصالح ناصر الدين محمد كسلطان بالإسم بس تلت تشهر و أيام فى سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٢-١٤٢١م و اعتبرت السنه دى سنة السلاطين لإن قعد فيها على عرش مصر اربع سلاطين و ده خلى عامة المصريين يسخروا و يرددوا : أربع سلاطين فى سنه .. و ايش دا العينه.

•

الأشرف سيف الدين برسباي (ت. ذي الحجة ٨٤١هـ/ مايو ١٤٣٧)

هو السلطان الثاني والثلاثون في ترتيب سلاطين دولة المماليك. تولّي السلطان "برسباي" عرش دولة المماليك ، ١ أبريل ١٤٢٢م= ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ. ويُعدّ من عظام سلاطين الدولة المملوكية ، وعلى يديه فُتحت قبرص .

ولاية برسباي

بدأ "برسباي" حياته مثل آلاف المماليك الذين يُجلبون إلى مصر، ويتلقون تعليما شرعيا وتربية خاصة في فنون الحرب والقتال، ثم يلتحقون بخدمة السلاطين، وكبار الأمراء، وترتقي ببعضهم مواهبهم وملكاتهم إلى المناصب القيادية في الدولة، وقد تسعدهم الأقدار فيصعدون إلى سدة الحكم والسلطنة، فيصبحون ملء الأسماع والأبصار، وتتطلع إليهم الأفئدة والقلوب، بعد أن كانوا مجهولي النسب، مغموري الأصل، ولكن رفعتهم همتهم أو ذكاؤهم وحيلتهم.

كان برسباي مملوكا للأمير "دقماق المحمدي" نائب "ملطية"، الذي اشتراه من أحد تجار الرقيق، ومكث في خدمته زمنا، ولقب بالدقماق نسبة إليه، فأصبح يعرف ببرسباي الدقماقي، ثم أهداه سيده إلى السلطان "الظاهر برقوق" سلطان مصر، فأعتقه، وجعله من جملة مماليكه وأمرائه، وبعد وفاة السلطان برقوق تقلّب في مناصب متعددة في عهد من خلفه من السلاطين، حتى نجح في اعتلاء عرش السلطنة في (٨ من ربيع الآخر ٨٢٥هـ = ١ من إبريل ١٤٢٢م)، وهو السلطان الثامن في ترتيب سلاطين دولة المماليك الجركسية، والثاني والثلاثون في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك.

وقد نجح السلطان برسباي في الفترة التي قضاها في الحكم -وهي نحو سبعة عشر عاما- في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على الثورات والفتن، التي شبت في البلاد، والضرب على أيدي الخارجين على النظام، كما فعل مع ثورة طائفة المماليك الأجلاب، وهم الذين جاءوا إلى مصر كبارًا، وكانوا قد عاثوا في الأرض فسادًا لتأخر رواتبهم في عامي (٨٣٥هـ = ١٤٣١م)، (٨٣٨هـ = ١٤٣٤م)، وقد مكّنه ذلك الاستقرار الذي نعمت به البلاد من القيام بغزو جزيرة قبرص.

فتح قبرص

اتخذ القبارصة من جزيرتهم مركزًا للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد تجارة المسلمين، فقام "بطرس الأول لوزنيان" ملك قبرص بحملته الصليبية على الإسكندرية في سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م)، وأحرق الحوانيت والخانات والفنادق، ودنس المساجد وعلق القبارصة عليها الصلبان، واغتصبوا النساء، وقتلوا الأطفال والشيوخ، ومكثوا بالمدينة ثلاثة أيام يعيثون فيها فسادا، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة (٧٩٦هـ = ١٣٩٣م).

وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلغ استهانة القبارصة بهيبة دولة المماليك واغترارهم بقوتهم أن اعتدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة (٨٢٦هـ = ١٤٢٣م)، وأسروا من فيها، ولم تفلح محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع "جانوس" ملك قبرص، تَضْمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

وتمادى القبارصة في غرورهم، فاستولوا على سفينتين تجاريتين، قرب ميناء دمياط، وأسروا من فيهما، وكانوا يزيدون على مائة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا كان قد أرسلها السلطان برسباي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عند ذلك لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك، واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسئولية، فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص، وذلك في ثلاث سنوات متتالية.

الحملات الثلاث

خرجت الحملة الأولى في سنة (٨٢٧هـ = ١٤٢٤م)، وكانت حملة صغيرة نزلت قبرص، وهاجمت ميناء "ليماسول"، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة.

شجع هذا الظفر أن يبادر برسباي بإعداد حملة أعظم قوة من سابقتها لغزو قبرص، فخرجت الحملة الثانية في رجب (٨٢٨هـ = مايو ١٤٢٥م) مكونة من أربعين سفينة، واتجهت إلى الشام، ومنها إلى قبرص، حيث نجحت في تدمير قلعة ليماسول، وقُتل نحو خمسة آلاف قبرصي، وعادت إلى القاهرة تحمل بين يديها ألف أسير، فضلاً عن الغنائم التي حُملت على الجمال والبغال.

وفي الحملة الثالثة استهدف برسباي فتح الجزيرة وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتيها وأكثر عددا وعُدة، فأبحرت مائة وثمانون سفينة من رشيد في (٨٢٩هـ = ١٤٢٦م)، واتجهت إلى ليماسول، فلم تلبث أن استسلمت للقوات المصرية في (٢٦ شعبان ٨٢٩هـ = ٢ يوليو ١٤٢٦م)، وتحركت الحملة شمالا في جزيرة قبرص، وحاول ملك الجزيرة أن يدفع القوات المصرية، لكنه فشل وسقط أسيرا، واستولت القوات المصرية على العاصمة "نيقوسيا"، وبذا دخلت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

واحتفلت القاهرة برجوع الحملة الظافرة التي تحمل أكاليل النصر، وشقّت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩هـ = ١٤ أغسطس ١٤٢٦م)، وكانت جموع الأسرى البالغة ٣٧٠٠ أسير تسير خلف الموكب، وكان من بينها الملك جانوس وأمراؤه.

استقبل برسباي بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وفود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسل من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان، فقبّل جانوس الأرض بين يدي برسباي، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائبا عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية، واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول".

العلاقات مع الدول المجاورة

ارتبطت مصر في عهد برسباي بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية، وتبادل التهنئة، فأرسل مراد الثاني بعثة في سنة (٨٢٧هـ = ١٤٢٣م) إلى القاهرة لتهنئة برسباي بالسلطنة، كما بعث إليه ببعثة مماثلة حين حقق برسباي انتصاره التاريخي على القبارصة، وقضى على خطرهم، وقد شهدت هذه البعثة الاحتفالات التي أقيمت في القاهرة ابتهاجا بعودة الجيش الظافر، وحضرت مقابلة السلطان برسباي في القلعة لجانوس وهو في أغلاله بعد هزيمته المنكرة وسقوط جزيرته.

وفي عهد السلطان برسباي تأزمت العلاقات بينه وبين الدولة التيمورية في فارس، وكان "شاه رخ" قد بعث إلى السلطان المملوكي يطلب منه إرسال بعض المؤلفات لعلماء مصر البارزين، مثل: فتح الباري لابن حجر، وتاريخ المقريزي، وأن يسمح له بكسوة الكعبة المعظمة، غير أن السلطان رفض، بل ولم يرسل له الكتب التي طلبها، ولم ييأس الشاه من الرفض فعاود الطلب والرجاء، وكان برسباي يرى أن كسوة الكعبة حق لسلاطين مصر لا يشاركهم في هذا الشرف أحد.

وكان من شأن هذا التوتر أن ساءت العلاقات بين السلطانين، واستعد كل منهما للآخر، وهنا يُذكر لعلماء مصر موقفهم الشجاع من برسباي حين أراد فرض ضرائب على الناس للإعداد للحملة الحربية؛ إذ رفضوا تصرفه، وانتقدوا إسرافه، وقالوا له: لا يجوز للسلطان أن يفرض الأموال على المسلمين، وزوجته تلبس في يوم ختان ابنها ثوبا يساوي ثلاثين ألف دينار.

الحياة الاقتصادية

اعتمدت الحياة الاقتصادية في العصر المملوكي على التجارة والصناعة والزراعة، غير أن التجارة استأثرت بالنصيب الأكبر في الاقتصاد المملوكي؛ حيث كانت التجارة العالمية تمر عبر حدود الدولة المملوكية، وقصد التجار الأوروبيون موانئها للشراء والبيع، الأمر الذي عاد على الدولة بالخير الوفير.

واتخذ السلطان برسباي عدة إجراءات لتنشيط حركة التجارة وترغيب التجار بشتى الطرق للنزول في الموانئ التابعة لدولته، فخفض الرسوم المفروضة على التجار في بعض الموانئ كميناء جدة، وأسبغ حمايته على التجار، وأمّن بضاعتهم من السلب والنهب، ودعّم علاقاته مع دول أوروبا ومدنها، فعقد معهم الاتفاقيات التجارية التي أسهمت في انتعاش حركة التجارة معهم.

وضرب السلطان الدينار الأشرفي ليكون أساس التعامل التجاري، وأبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي، وشجع الناس على استعمال نقوده التي سكّها بأن رفع سعرها ليكون لها قوة شرائية كبيرة تدفع إلى التعامل بها.

غير أن السلطان احتكر تجارة بعض السلع: كالسكر، والفلفل، والأقمشة الواردة من الموصل وبعلبك، وهو ما أدى إلى ارتفاع سعرها ومعاناة الناس في شرائها.

وامتدت همة السلطان برسباي إلى العناية بالزراعة، فأمر بحفر الخليج الناصري بعد أن كاد يطمر، وعُني ببناء الجسور، وإقامة القناطر، وإصلاح ما تهدم منها، ونظرا لهذه الرعاية، فلم تتعرض المحاصيل للهلاك بسبب نقصان المياه طوال المدة التي قضاها في الحكم.

النواحي الحضارية

لم يتلقَّ السلطان تعليما منظما مثل كثير من المماليك في القلعة، وإنما كان تعليمه محدودا، لكنه استكمل هذا النقص بأن اتخذ العالم الفقيه المؤرخ "بدر الدين العيني" مُعلما ومربيا، فكان يسامره ليقرأ له التاريخ، ثم يفسره له بالتركية، وكان الشيخ ضليعا فيها، كما كان يعلمه أمور الدين، حتى إن السلطان كان يقول: لولا العيني لكان في إسلامنا شيء.

وعُني السلطان ببناء ثلاث مدارس إحداها بمدينة الخانكة التابعة لمحافظة القليوبية، حيث بنى السلطان بها مسجداً عريقاً سنة (٨٢٥هـ = ١٤٢١م) يعرف حالياً بجامع السلطان الأشرف برسباي وملحق به ومدرسة ومسقى تهدمت مع الوقت ولكن آثارها لازالت قائمة، ويعد الجامع تحفة معمارية، أما المدرسة الثانية فقد بناها بالقاهرة بشارع المعز لدين الله، وهي المعروفة بالأشرفية نسبة إلى لقب صاحبها، وتمت عمارتها سنة (٨٢٩هـ = ١٤٢٥م)، وهي السنة التي فتح فيها قبرص، والثالثة بالصحراء خارج القاهرة، وهي التي دُفن فيها، كما عُني بشئون الحجاج، فأمر بحفر الآبار على طول الطريق من مصر إلى الحجاز.

لم يكتف السلطان بما شيد من مبانٍ ومنشآت، فشملت عنايته المدارس والخانقاوات التي بنيت قبله بعد أن أهملها مباشروها ونُظّار أوقافها، فَشكل مجلسا من القضاة يتولون النظر في أوقاف هذه المدارس ومراجعة شروطها للتحقق من التزام النظار بهذه الشروط، وأسند رئاسة هذه المدارس إلى شيخ الإسلام "ابن حجر العسقلاني".

وكان من شأن هذه المدارس أن نشّطت الحركة العلمية، وازدهرت العلوم والفنون، وحسبك أن يكون من أعلام عصر السلطان برسباي الحافظ "ابن حجر العسقلاني" صاحب "فتح الباري" و"الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"، و"الإصابة"، والحافظ "بدر الدين العيني" صاحب "عمدة القاري شرح صحيح البخاري"، و"عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، والمؤرخ العظيم المقريزي صاحب كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"اتعاظ الحنفا"، و"الخطط المقريزية".

وفاة السلطان

وبعد أن قضى السلطان برسباي في الحكم نحو سبعة عشر عاما، تُوفي في (ذي الحجة ٨٤١هـ = مايو ١٤٣٧م)، بعد أن ارتبط اسمه بالجهاد ضد الصليبيين، وأضاف إلى دولته جزيرة قبرص، وهو ما أضفى على سلطنته رونقًا وشهرة.

- الحملة الصليبية السابعة

١. ^ جاء في كتاب لويس التاسع للسلطان الصالح أيوب: "أما بعد فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا. ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجل ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشموع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتلك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة علي، فيدك العليا ممتدة إلي. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا". -(المقريزي، ٤٣٧/١)
٢. ^ جاء في رد الملك الصالح على رسالة لويس التاسع: "أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك - أيها المغرور - حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهناك تسيء بك الظنون، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، وكن على آخر سورة ص: (ولتعلمن نبأه بعد حين)-سورة ص آية ٨٨-. ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)-سورة البقرة آية ٢٤٩-. وإلى قول الحكماء: "إن الباغي له مصرع" وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام". -(المقريزى، ٤٣٧/١-٤٣٨)

المماليك البرجية

نظام الدولة المملوكية

الدولة المملوكية كات منظمة من الناحية الإدارية. وأدخل المماليك أساليب جديدة للإدارة ومصطلحات لم تكن موجوده في مصر. على قمة هرم السلطة كان السلطان يرأس الدولة الذي تربع على العرش بتفويض من الخليفة العباسى في القاهرة. وعندما حاصر التتار بغداد وإحتلوها وقتلوا الخليفة المستعصم، ولي الظاهر بيبرس خليفة بدلا منه في القاهرة لكي يعطي المماليك الشرعية في الحكم. وبتفويض من الخليفة أصبح السلطان في يده كل شيء ومعه كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. لكن كان السلطان يعتمد في ذلك الأمر على قوة مماليكه وولائهم له وقدرتهم على كبح جماح مماليك الأمراء الآخرين. لذلك تاريخ الدولة المملوكية كان ممتلئ بسلاطين نصبوا نفسهم بعدما تمكنوا من السلطة الفعلية وجعلوا السلطان مجرد لعبة في أيديهم إلي أن يقدروا أن يخلعوه، إما بنفيه أو بقتله لو لم يسالم ويتنحي، ويتولي أميرهم بدلا منه. مثلما حدث للسلطان السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس الذي عزله السلطان قلاوون وولي بدلا منه أخيه الأصغر العادل بدر الدين سلامش، إلي أن تمكن هو ومماليكه وعزلوه، وتربع قلاوون على العرش. ومثلما حدث لإبنه السلطان الناصر محمد من كتبغا وبيبرس الجاشنكير. وتلك أمور كانت تحدث في العصر المملوكي وكل دول العالم. لم تكن السلطنة في العصر المملوكي بالتوريث. ومن المؤكد وجود أبناء للسلاطين يورثوا الحكم كالسلطان السعيد بركة وسَلامش أنجال الظاهر بيبرس، ومن بعده أولاد وأحفاد السلطان قلاوون، ولكن العادة كانت تحتم أن يجلس أولاد السلاطين إلي أن تهدأ الأمور، وبعد ذلك يتخلعوا ويجلس بدلا منهم أمير قوى، الذي قد كان نائب السلطان والحاكم الحقيقى. الجلوس علي عرش السلطنة لم يكن بالتوريث ولا بالتفويض الشعبي بل كان بالتنافس علي القوة وكثرة المماليك والسلاح والإقطاعيات، لكن كان عادة بتفويض الأمراء الذين كانوا يجتمعون ويتفقون على تنصيب السلطان، وبطبيعة الحال الأمير الذين كانوا يختاروه كان اقواهم وله اتباع أكثر، أو اضعفهم فيجلسوه على العرش وينظموا بمفردهم شئون البلاد.

الحرس السلطانى (المماليك السلطانية) أو الخاصكية كانوا أهم المماليك بالنسبة للدولة السلطانية. ووهؤلاء كان السلطان يهتم بهم وينفذ لهم كل ما يريدون، وكان يغدق عليهم بالكثير من الهدايا والهبات، لإن سلطنته وحياته نفسها كات متوقفه عليهم. وكان رئيس الحرس السلطانى يعتبر حاكم مطلق وله مماليكه وقواده وكانوا طبعا يعينوا في مراكز مهمة في السلطنة كوظيفة الدوادار، وهو المسئول عن نقل الرسائل بين أنحاء ومدائن السلطنة، وكان يشرف على مراكز البريد والحمام الزاجل (البريد الجوي) وكان معاه ختم السلطان الذي يختم به جميع على الرسائل والمستندات السلطانية، وكان يحكم مصر في وقت غياب السلطان. والمؤرخ الكبير بيبرس الدوادار كان واحد منهم. وكان من المحتمل أن يكون رئيس الحرس السلطاني داوادار السلطنة. الدوادار كان تابع ديوان "أمير القلم" و كان قسم في "ديوان الإنشا" المسئول عن علاقات مصر بالبلاد الأخرى، ووكتابة رسائل السلطان لملوك وسلاطين البلدان الأخرى، وكان لكل جواب صيغة متعارف بها بين السلطان وبقية السلاطين وفي حالة ما تكون الرسائل بصيغة أخرى كان السلطان يعرف أنها مغشوشة أو مزورة. وقد كان المؤرخ محيي الدين بن عبد الظاهر أحد رؤساء ديوان الإنشا، واخترع صيغ كتابة لم تكن تستعمل من قبل لتعارف العامة والطامعين علي الصيغ الأخرى.

وإن لم يتولِ رئيس الحرس السلطانة مهمة الدوادار كان يتولي قيادة الجيش ويطلق عليه أتابك العسكر أو الأمير الأكبر. وكان للقصر رئيس يشرف عليه اسمه "الأستادار" وكان المشرف على مخازن السلاح يعرف بالسلحدار ورئيس الإسطبلات كان بيلقب بأمير آخور.

كان لكل طبقة من المماليك لباس معين مصنوع من أقمشة باهظة الثمن ومطرزة بالذهب والفضة، وعندما يخرجوا مع السلطان في المواكب الفخمة كان لكل جماعة أميرها والناس تزاحم لكي تشاهد موكب السلطان.

في العصر المملوكى كات مصر مقسمة على عشرين قسم كل قسم يتولاه والى أو أمير. وكان الوالى عبارة عن سلطان للمنطقة التي كان يحكمها. وأهم والى كان والى القاهرة وهذا كان أكبر أمير يحكم القاهرة وضواحيها وكان اسمه والى الشرطة ووالى الحرب. بعد حوادث الإسكندرية سنة (١٣٦٥) أصبح في مدينة الإسكندرية والي عظيم الشأن وكان يحل محل السلطان في حالة غيابة عن البلاد هو ورئيس الحرس. ووقد كان قلعة الجبل والي، مقر الحكم وقصر السلطان، وكان يشرف علي باب المدرج وهو أكبر أبواب القلعة وكان فيه والى باب القله.

وعندما توسعت الدولة المملوكية خارج مصر كان يرسل لها ولاة ينوبون عنه في حكم الشام والحجاز واليمن وأفريقية والعراقين وكانوا يسمون علي سبيل المثال نائب السلطان في ولاية الشام. وكانوا يختلفون عن نائب السلطان المباشر في القاهرة الملقب بكافل الممالك الشريفة، وكان مركزهم أقل منه ولم يملكوا صلاحياته التي كانت تقريبا نفس صلاحيات السلطان وكان من حقه أن يختم على مستندات الدولة وأن يحرك الجيش بدون غير أمر السلطان.

كانت الدولة المملوكية في مصر من سنة ١٢٥٠ إلي سنة ١٥١٧، المماليك البحرية، وكان معظمهم من أصل تركى (turkic) (ليسواالتراك من تركيا) حكموا إلي عام ١٣٨٢، والمماليك البرجية وكان معظمهم من أصل شركسى حكموا من أيام السلطان برقوق إلي عام ١٥١٧. طومان باى كان أخر سلاطين الدولة المملوكية عندما فتحت الدولة العثمانية مصر وبدأ عصر الأتراك العثمانيين (اتراك من تركيا) وأصبحت مصر ولاية عثمانية. وعندما انتهي عصر المماليك في مصر كتب المؤرخ ابن إياس قصيدة شعر بدايتها تقول: " نوحوا على مصر لأمر قد جرى.. من حادث عمت مصيبته الورى".

حملات الدولة المملوكية ضد العرب البدو

شن المماليك حملات على العرب البدو

خاضت الدولة المملوكية حروب ومواقع ضد العناصر العربية التي جاءت إلي مصر فيما يعرف بهجرة بني هلال وقبيلة جهينة وأصبحت مصدر للقلق والإرهاب والخروج على الأمن والنظام وقطع الطريق ونهب المصريين في الصعيد بالذات. تسللت قبيلة بني هلال وقبيلة جهينة في العصر الفاطمي بطلب من الخليفة العباسي في بغداد لكي يشغلوا الدولة الفاطمية لأنها كانت في منازعات وثورات داخلية واستقرت تلك القبيلتان في صعيد مصر وبعض مناطق الوجه البحري كإقليم البحيرة.

لعب العرب البدو أدوار سيئة في وقت الحملة الصليبية السابعة على مصر (١٢٤٩-١٢٥٠)و تسببوا في احتلال دمياط بسهولة في ايدي الصليبيين بعدما وثق فيهم السلطان الصالح أيوب وأجلسهم فيها لكي يحموها فهربوا وتركوها، فغضب الصالح عليهم بعدما خانوا الأمانة وأعدم منهم عدد كبير [١٣]. ووقد تقدم الصليبيين إلي المنصورة بسبب أن دلهم خائن من العرب البدو على مخاضة في بحر أشموم طناح واستطاعوا أن يعبروا منها للمعسكر المصري ويهجموا عليه فجأة [١٤][١٥]، وقتل فخر الدين يوسف القائد العام للجيوش المصرية، وكانت من المحتم أن يحتل الصليبيين مصر لولا ظهور المماليك في المنصورة ومعهم الأهالى وتصديهم بنجاح للقوات الصليبية المهاجمة.

في عهد السلطان عز الدين أيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) كانت العناصر العربية مصدر تهديد وعدم استقرار لأمن مصر وسلامتها، لكن أيبك أرسل لهم حملات وتبعهم في مديريات الوجه البحرى وقضى على قوادهم وسيطر عليهم وحد من جرائمهم وأعمالهم الفوضوية. ويحكى المقريزى: "و أمر المعز بزيادة القطيعة على العرب، وبزيادة الضرائب والمكوس المأخوذة منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر فذلوا وقلوا"[١٦].

.

الدولة المملوكية في أوج عظمتها

بدأ نظام الحكم المملوكى بالملكة شجرة الدر وقد كان هذا الأمر بدعة في تاريخ مصر لم تحدث سوي مرات قليلة منها.

- ومن ناحيه أخرى أحدث النظام المملوكى تطوير كبير في نظم الحكم على مستوى العالم حيث ان النظام لم يكن قائم على التوريث لكن على اختيار الحاكم وتلك كانت شيء جديد في تاريخ مصر ليست فقط على مستوي مصر والشرق الأوسط لكن على مستوى العالم في العصور الوسطى.

لمماليك البحرية أو **مماليك الترك** سلالة من المماليك أغلبها من الأتراك القبجاق التى حكمت مصر من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٣٨٢. اتبعوا السلالة الأيوبية، وخلفهم سلالة المماليك الثانية المماليك البرجية.

و لفظ **البحرية** تعنى "النهر" مشيرة إلى جزيرة الروضة فىالقاهرة[1] التى عاش بها المماليك و بنى بها السلطان الأيوبىالصالح أيوب قلعة الروضة[3][2].

تاريخ المماليك

شكلت المماليك واحدة من أقوى وأغنى الامبراطوريات في ذلك الوقت، دامت من عام ١٢٥٠-١٥١٧ في.

تطور الأوضاع

في ١٢٥٠، عندما توفي السلطان الأيوبي الصالح أيوب، فقام المماليك الذين قد كان يملكهم كعبيد بقتل ابنه ووريثة توران شاة، كما أصبحت شجرة الدرأرملة الصالح سلطانة مصر. و تزوجت من الأتابك) القائد العام (الأمير أيبك وتنازلت له عن العرش. و صار أيبك سلطان و حكم من عام ١٢٥٠-١٢٥٧[5][4].

تماسكت قوة المماليك خلال عشر سنوات وفي النهاية أنشأوا السلالة الحاكمة المماليك البحرية. و قد كان سبب تماسك قوتهم هو نهب المغول لمدينة بغدادعام ١٢٥٨، والتي دمرت بشكل فعال على الخلافة العباسية. فأصبحت القاهرة أكثر أهمية نتيجة لذلك، وظلت من بعدها عاصمة المماليك.

المماليك كانوا فرسان أقوياء خلط أساليب الشعوب التركية على السهوب بالإضافة إلى التطور التنظيمي والتكنولوجي والفروسية التى تعلموها من العرب الفاتحين. عام ١٢٦٠ هزم المماليك جيش المغول في معركة عين جالوت الموجودة الآن في أرض الإحتلال الاسرائيلى واضطروا الغزاة في نهاية المطاف إلى التراجع إلى العراق [6].هزيمة المغول على يد المماليك عزز موقف المماليك فى جنوب حوض البحر

الأبيض المتوسط[8][7].الظاهر بيبرسأحد القادة في المعركة، أصبح السلطان الجديد بعد اغتيال السلطان قطز في طريق عودتهم[10][9].

عام ١٢٥٠ كان بيبرس أحد قادة المماليك الذين دافعوا عن المنصورة[11] ضد فرسان الحملة الصليبية لويس التاسع ملك فرنسا، الذي هُزم و أُسر في فراسكور و تم افتداؤه [12].قد أخذ بيبرس أيضا في الإستحواذ على المماليك في مصر. و في عام ١٢٦١ م بعد أن أصبح سلطان. صار يتحكم فى الخلافة العباسية من القاهرة،[13] وحارب المماليك بقايا الدول الصليبية في فلسطين حتى استولوا على عكا[14]

التتار

استقر كثير من التتار في مصر وتم توظيفهم من قبل بيبرس [16][15].و هزم المغول في معركة الأبلستين[17] وأرسل الخليفة العباسي ب٢٥٠ فقط من الرجال لمحاولة لاستعادة السيطرة على بغداد، لكنه لم يوفق. في ١٢٦٦ مملكة أرمينيا الصغرى عام ١٢٦٨ واستعاد أنطاكية من الصليبيين[19][18].بالإضافة إلى ذلك، كان قد حارب السلاجقة و الحشاشين[20]؛ كما انه مدد قوة المسلمين إلى النوبة للمرة الأولى، قبل وفاته في عام ١٢٧٧.

السلطان قلاوون هزم التمرد في سوريا التي كان يقودها سنقر الأشقر في ١٢٨٠ [21],وهزم أيضا الغزو المغولي الآخر في ١٢٨١ التي كانت بقيادة أباقا خان خارج حمص [22].بعد أن قام المغول بالتهديد استعاد طرابلس من الصليبيين في ١٢٨٩. استولى ابنه خليل على عكا، المدينة الصليبية الماضي في ١٢٩١[24][23].

اقاليم دولة القبيلة الذهبية فى عام ١٣٨٩.

جدد المغول غزوهم في عام ١٢٩٩، [25],ولكنهم هزموا مرة أخرى في ١٣٠٣ [27][26].دخل سلاطين المماليك المصرية في علاقات مع القبيلة الذهبية الذين اعتنقوا الإسلام [28].وأقام اتفاق سلام مع المغول في ١٣٢٢[29].

تزوج السلطان الناصر محمد من أميرة مغولية ١٣١٩. كانت علاقاته الدبلوماسية أكثر اتساعا من أي سلطان سابق، وشملت ملوك بلغاريا والهند والحبشة، وكذلك البابا،و ملك أراغون وملك فرنسا [30].نظم الناصر محمد بن قلاوون إعادة حفر للقناة عام ١٣١١ التي كانت تربط الإسكندرية مع نهر النيل [29] .توفي في ١٣٤١.

انحلال دولة المماليك البحرية

أدت التغيرات المستمرة من السلاطين التي أعقبت إلى اضطراب كبير في المحافظات. وفي الوقت نفسه، في ١٣٤٩ أدخلت مصر وبلاد الشام بشكل عام إلى الطاعون، الذي يقال أنه أودى بحياة الكثير من السكان[32][31].

تولى الصالح حاجي الحكم خلفا لأخية السلطان المنصور علاء الدين ولم يمض على حكمه سوى سنة حتى خلع في عام ١٣٨٢ وتسلطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة. غير أنه أعيد الصالح حاجي وحكم مدة سنة واحدة. ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه وأعيد إلى سلطانه ، وانتهى أمر المماليك البحرية بشكل دائم وجاء عهد المماليك الجراكسة أو البرجية[33].

التنظيم العسكري

على المستوى العام، والعسكري خلال سلالة البحرية يمكن تقسيمها إلى عدة جوانب

.1**المماليك السلطانية**, فى وصف القلقشندي بأنهم كانوا عند السلطان الأعظم شأنا تنقسم المماليك السلطانية إلى-:

- الخاصكية : عرفوا بهذا الأسم لأنهم كانو يلازمون السلطان في خلواته و أوقاته و كانوا يميزون عن الآخرين بحملهم السيوف و يرتدون حللا مزركشة ويسمح لهم بالدخول على السلطان وهو في خلوته دون إذن سابق وكانوا مميزين في زيهم و ركوبهم وكانوا يرسلون في مهمات خاصة إلى الدول الأجنبية وكان للخاصكية آداب معينة وتقاليد خاصة يتميزون بها عن غيرهم و عندما يكونون في الخدمة السلطانية يقف كل واحد منهم في مكانه المعين له دون أن يسمح له أو لأحد من المماليك أن يحدث زميله بكلمة واحدة في اي امر من الأمور ولا يلتفت إليه كما كان محرما عليهم أن يجتمع كل منهم بالآخر في الرحلات أو الصيد وإذا بلغ السلطان عن أحدهم أنه فعل ذلك بدون إستئذان يأمر بنفيه أو القبض عليه ،وكان الخاصكية يقضون معظم النهار و جانبا من الليل في خدمة القصر السلطاني.

- النوبة : وهو من يدخل على السلطان في النهار ليعرض عليه الأمور الخاصة بالمماليك و كان من إختصاصه الإشراف على مماليك السلطان و الفصل في خصوماتهم وعقاب من يهمل منهم واجباته ويرجع إليه المماليك في كل أمورهم وقد بلغ من تكريم السلطان لهذا الموظف الكبير أنه كان يخاطبه بلقب " الجناب العالي " بل كان يدعوه أحيانا " الأخ " وقد جرت العادة أن يتقلد وظيفة رأس النوبة أربعة امراء.

- حرس السلطاني خارج القصر : كان له أهمية كبرى في المواكب السلطانية التي كان يمتاز بها ذلك العصر إذ تعددت تلك المواكب حتى شملت موكب السلطنة و الاحتفال بفتح الخليج وصلاة الجمعة والعيدين ولعب الكرة والصيد.

- القراصنة : وهم مماليك السلاطين السابقين بمعنى أصح قدامى المحاربين الذين قاموا بخدمة طويلة في الجيش وكان وضعهم في ساحة القتال مميز جدا حيث يقع عليهم عبء الحرب كله.

.2**أجناد الحلقة** : تتكون من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهم على هذا الأساس جيش الدولة الذي لايتغير بتغير السلطان ويشرف على كل ألف منهم أحد الأمراء ويشترط فيه الالمام بمساكنهم ومكان إقامتهم لجمعهم عند الطلب وليس لهذا الأمير سلطة عليهم إلا في أثناء الحرب و تعتبر القوة الضاربة للجيش و أجنادها يحتلون مراكز الشرف الأولى في كافة الحفلات الرسمية المختلفة وكانت أسماؤهم جنبا إلى جنب مع أسماء الأمراء في الحفلات الرسمية وبخاصة إحتفال القسم عند إعتلاء السلطان عرش السلطنة ، كما استخدم مقدمي الحلقة كمبعوثين للدول أو لصحبة الأجانب وهم في طريقهم إلى بلادهم عائدين من مصر وإن كانت مهمة هاؤلاء المبعوثين كانت عادة مخصصة لطائفة الخاصكية . ولقد وصلت أجناد الحلقة الى مراكز رئيسية مرموقة نتيجة لدورهم الهام في اعمال القتال ويعتبرون فخر الجنود ويقاتلون في قلب الجبهة.

.3**أجناد الأمراء** : كان لكل أمير مجموعة من المماليك ترافقه في حله وترحاله وتكون معه في ميادين القتال وكانوا عادة يعسكرون خارج القاهرة وكان عدد أجناد الأمراء محدود حيث كان يحل دائما مماليك جدد محل الذين تقادموا.

الأسباب المباشر لتدهور وسقوط دولة المماليك

دولة المماليك :

كان المماليك دائمًا أهل طعان ونزال كانوا أشقاء للسيف والرمح قهروا التتار والصليبيين أبطال عين جالوت ووقعة حمص وشقحب وفتحوا قبرص، ولكن لما نسوا تلك الرسالة السامية التي عاشوا من أجلها في الذود عن حياض الأمة المسلمة، وانقلبوا إلى متسلطين على شعوبهم فقدوا دورهم في التاريخ وحانت نهايتهم المحتومة وموت دولتهم السريع، تنقسم دولة المماليك إلى مرحلتين وهما:

دولة المماليك البحرية أو المعزية، واستمرت من سنة ٦٤٨هـ، حتى سنة ٧٨٤هـ، تعاقب فيها ٢٤ سلطان أشهرهم سيف الدين قطز قاهر التتار والظاهر بيبرس قاهر الصليبيين، والناصر محمد بن قلاوون.

دولة المماليك الشراكسة أو البرجية، واستمرت من سنة ٧٨٤هـ حتى سنة ٩٢٢هـ، تعاقب فيها ٢٣ سلطانًا أشهرهم الظاهر برقوق والأشرف برسباي فاتح قبرص والأشرف قايتباي، وقنصوه الغوري، وآخرهم طومان باي الذي قاد المماليك في معركة الريدانية.

وقد قام المماليك بجهود مشكورة في خدمة الأمة الإسلامية وذلك كما يلي:

١- صد هجمات التتار وردهم إلى بلادهم بعد أن كادوا أن يستولوا على كل بلاد المعمورة.

٢- تطهير سواحل الشام والثغور الإسلامية من بقايا وفلول الصليبيين في عكا وطرابلس وبيروت حتى لم يبق بها أثر ولا ذكر لعباد الصليب، مما أثار الحمية للإسلام عند عموم المسلمين في أيامهم.

٣- قدموا نهضة حضارية كبيرة، ونشطوا عمرانيًّا فبنوا المدن والقلاع والمساجد والقصور والمعاهد والمدارس، واهتموا بالعلم اهتمامًا كبيرًا، وكان لبعضهم مشاركات علمية مثل الغوري، وانبرى أهل العلم في مدنهم للتدوين والتأليف حتى عدت فترتهم أخصب وأنتج الفترات الإسلامية ونبغ في أيامهم الكثير من العلماء الأفذاذ مثل: النووي وابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن القيم وابن حجر والحافظ المزي والذهبي وابن كثير والمقريزي والسخاوي والقلقشندي وابن جماعة وغيرهم كثير.

٤- أحيوا الخلافة العباسية مرة أخرى بعد أن زالت ببغداد ونقلوها إلى القاهرة.

العلاقة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك :

في الوقت التي كانت فيه الدولة المملوكية تدخل طور الشيخوخة وللهرم كانت هناك على الطرف الآخر شمال شرق بلادهم دولة أخرى تدخل في طور القوة والشباب، وهذا أدى قطعًا لنوع من الخلافات لكون الدولتين متجاورتين وتعتبر جبال طوروس هي الحد الفاصل بينهما، وقد وقعت عدة حوادث وقامت عدة أسباب أدت في النهاية لتوتر العلاقة بين الدولتين ثم الامتثال بينهما وهي:

١- موقف المماليك العدائي من العثمانيين حيث كان يقوم سلاطين المماليك بإيواء المتردين والمعارضين للحكم العثماني، كما أدى الأشرف قايتباي الأمير (جم) المعارض لأخيه السلطان بايزيد الثاني، وكما أدى قنصوه الغوري الأمير (أحمد) أخو سليم الأول.

٢- الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه إسماعيل الصفوي بل تمادوا أكثر من ذلك، وراسل المماليك الصفويين للتعاون ضد العثمانيين، هذا رغم أن المماليك والعثمانيين أهل سنة والصفويين شيعة متعصبون يكرهون الاثنين.

٣- الخلاف الحدودي بين الدولتين في منطقة طرسوس الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام، والنزاع الدائم بين قبائل تلك المنطقة.

٤- تفشي ظلم الدولة المملوكية ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من هذا الظلم والانضواء تحت لواء الدولة العثمانية، وقد كتب قضاة المذاهب الأربعة والأشراف عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها سليم الأول بالقدوم إلى بلادهم لأخذها ورفع ظلم المماليك الذي يخالفون الشرع الشريف، وقد جاءت رسائل من سوريا ومصر بهذا المعنى لسليم الأول، فاستشار علماء وفقهاء دولته فأشاروا عليه بضم الشام ومصر لأملاكه لرفع المظالم وتطبيق الشرائع.

٥- ضعف المماليك عن رد عارية البرتغاليين الصليبيين الذين نزلوا الخليج العربي استولوا على عدن وفي نيتهم الزحف إلى الأراضي المقدسة والاستيلاء على المدينة، ونبش القبر الشريف للمقايضة بالجسد الطاهر على بيت المقدس، ونجاحهم في الاستيلاء على العديد من مدن جنوب الجيرة مما أوجب سرعة التحرك قبل سقوط الأماكن المقدسة.

موقعة مرج دابق :

كان السلطان سليم الأول، ذا عقلية عسكرة فذة، وهمة ونشاط في التحركات الحربية، وفي أثناء انشغاله في القتال مع الدولة الصفوية الشيعية التقطت مخابراته الحربية رسائل متبادلة بين الشاه إسماعيل الصفوي وقنصوه الغوري، مما أكد الشكوك القديمة من تحالف الطرفين على العثمانيين فقرر سليم الأول التوجه للمماليك فور الانتهاء من الصفويين..

وبالفعل زحف السلطان سليم بجموع غفيرة إلى الشام، وارع قنصوه الغوري للقاءه خارج مصر، وفي يوم ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ التقى الجيشان عند مرج دابق على مشارف حلب، وانتصر العثمانيون رغم المقاومة الباسلة التي أبداها الغوري وكان في الثمانين من العمر، وقتل الغوري، ودخل حلب ثم دمشق وسانده الأعيان وأمراء الشام مثل جان برولي الغزالي وفخر الدين المعني، وكلاهما سيكون له خيانة بعد ذلك للعثمانيين يقتل بها، وأكرم العثمانيون الغوري بعد مقتله وكفنوه وصلوا عليه ثم دفنوه في مكان لائق ثم واصل سليم زحفه إلى مصر.

معركة الريدانية :

قبل أن يتحرك سليم الأول من الشام أرسل إلى زعيم المماليك بمصر وهو طومان باي برسالة يدعو فيها للطاعة للدولة العثمانية، ولكنه سخر من هذه الرسالة، تمادى أكثر من ذلك بأن قتل الرسول وهذا يعد إعلانًا بالحرب كما هو معروف.

أسرع سليم بجيوشه ومن دخل في طاعته من أهل الشام إلى مصر، واستعد طومان باي للقتال وفي يوم ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ، التقى الجيشان في منطقة الريدانية، (وهي حي العباسية الآن في القاهرة)، وحاول المماليك صد الهجوم، وكانوا من قبل أرباب السيف والرمح واستبسلوا في القتال خاصة كبيرهم طومان باي الذي قاد مجموعة فدائية بنفسه واقتحم معسكر سليم الأول وقبض على وزيره سنان باشا وقتله بيده ظانًّا منه أنه سليم الأول..

ولكن الخطة العسكرية الذكية التي وضعها العثمانيون وأبطلت مفعول المدفعية المملوكية إضافة للتفوق العسكري المادي والخططي لصالح العثمانيين والروح المعنوية العالية لدى العثمانيين كل ذلك حسم المعركة لصالح العثمانيين.

وهكذا قبعت الدولة المملوكية في دهليز من دهاليز العصور الوسطى المظلمة، والخالي من النوافذ والأبواب، فلا سبل لها في الخرج منه، وما رفض ما جاء به المغربي عن البارود خير دليل على هذا التقوقع الرافض لكل سبل التغير الذي أثر على مناطق متعددة في العالم، فأصبحت محاطة بدول قوية وفتية آخذة بالاتساع، كالعثمانية في الشمال وأوروبا في الغرب، والصفوية في الشرق

إن هذه الخلفية من تخلخل في النظام الداخلي للمجتمع المملوكي بكل فئاته من جهة، وتزايد أطماع القوى الفتية المحيطة للسيطرة على السلطنة المملوكية من جهة أخرى، ساعد في تفكك أوصالها وعجَّل في زوال ملكهم.

-إن محاولات الإصلاح التي قام بها بعض السلاطين لتقوية دولتهم لم تستطع أن تخرجها من الضعف الذي أصابها، ولا أن تستأصل عوامله التي كانت أعمق من أن تصوَّب بتلك المبادرات السطحية السريعة، فالسلاطين الذين توالوا على السلطنة ضعاف الشخصية والسند، والجيش الذي هو العماد الأساسي في كيان الدولة فسد نظامه وسار نحو الانحلال وأرهقت ممارساتهم قوة الدولة واستنفذت ميزانيتها، والسكان أصبحوا في واد والحكام في وادٍ آخر.

أن المجتمعات ترنو إلى التغير والتغيير، فما حلّ بالدولة العثمانية وطول الفترة الزمنية التي حكمتها أدى إلى تراكمات ضخمة بفعل الاحتكاك الطويل والمباشر مع السكان والدول المجاورة طغت فيه الآثار السلبية على الإيجابية، ومن المعروف أن الأمم عند الأزمات عادة ما تذكر السلبيات من قتل وتشريد ونهب وسلب وفناء النسل والضرع متناسية الأفعال الحميدة التي قدمتها الدولة، مما يضع السكان في واقع يألفون به زوال دولتهم، وتقف مع من يخلصهم منها حتى لو كان عدوًا لهم فيقاتلون معهم، وفي أحسن الأوضاع لا تتعاطف معها، ولا تأسف على زوالها حيث لا رجعة لها بعد اليوم.